صفحات انتحار...

رواية

محمد الهاشمي

صفحات انتحار...
المؤلف: محمد الهاشمي

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : أغسطس 2017
رقم الإيداع : 2017/17057
الترقيم الدولي : 978-977-769-188-8

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

الإهداء:

إلى أمي؛ التي عانت وفعلت كل ما تستطيع لأجلنا..
وإلى أبي الذي يشكل تاريخاً تربوياً في حد ذاته..
وإلى إخوتي كذلك..
وإلى آخرين ..
أهدي هذه الرواية إلا أن بعض الاستثناءات أولى.

نعيش حياتنا، وتزداد طموحاتنا يوماً بعد يوم، رغم أننا نعلم أن هناك شيئا ما ينتظرنا على منعطف ربما أوشكنا للوصول له، إنها النهاية القادمة؛ شئنا أم أبينا.

محمد الهاشمي

أعيش حالة هيستيرية معبأة بك، أكتبك بقلمي الخارج على القانون كمجرمٍ هارب، أكتبك بكل ذاك الجنون أو «عشقٌ ورقي» كما تسميه أنتِ.

هو موسم اصطفاء الأحداث، ليس كما يجب لها أن تكون، وشتاء اللغة في عتمة الليل المظلم، حيث لا مكان للمزاج، ولا حرية لمخيلتي التي تريدك كما أشتهى بل كما تشتهي سادية الواقع.

«الواقع».. أكره هذه الكلمة التي تُسَيِّرنا كما تريد، وتجعل منا دُمًى، تحركنا كما تشاء، ونحن نهمس بكلماتنا التي تتردد في الخروج من بين شفاهنا؛ خشية أن تسحقنا بِرَحَاهَا.

لا أزال أذكر رسالتك الأولى في بكور لقاءاتنا، حين اخترقت سكون اللحظة وسقطت على نتوءات الذاكرة الصغيرة، وانفلتت من بينها لتقع على كف يدي اليمنى، الذي اسود لكثرة إمساك قلم الرصاص والممسحة، يطغيان على مزاجي في كل لحظة، وأنا أزاول الكتابة ليست كمهنة، بل كروتين يومي اعتدت عليه، وصار من الأولويات في يومي المزدحم بالأشياء والفارغ في آن واحد، فارغٌ تماماً لا يحمل شيئا غيرك ونَفْسي، ومفعم بالتفكير وتَكَدُّس الذكرى على مساحة لا تتجاوز سنتيميترات عديدة فقط.

منذ دقائق فقط شعرت برغبة في إعطاء هذه المساحة الفارغة بين الأسطر حقها في الحياة قبل فوات الأوان، ورفع الحظر عن قلمي الذي أعلم تماماً أنه سيضاجعها دون حياء أمامي، ولن يبالي بوجودي أنظر إليهما، وستعشقه في تلك اللحظة دونما تفكير، ولكن عزفت عن الفكرة بسبب الصداع الذي يراودني كلما فكرت في الكتابة عنك.

أصبحت أدرك صيرورة الأحداث في عالم هرِم لكثرة التشابهات فيه، سأبتلع حَبَّةَ مُسَكِّن للألم وأواصل كتابتي التي تأخذ مساراً آخر عادة بعد المُسَكِّن، ربما أكتب عن البلاد التي أنتمى إليها قسراً وأكره أني أنتمي إ ليها حين أقرأ تاريخها المليء بالحروف الملطخة بالدماء، أولئك الرجال الذين حاربوا لأجل نيل حرية الوطن والفوز بالشهادة في الوقت ذاته، وأصبح الناس الآن يقدسونهم ويسبقون أسماءهم بكلمة التبجيل المعهودة «السيد»، ويدعون أنهم ينتمون إليهم بسبب الشرف الذي لحق بهم بعد استشهادهم كما يسمونه، يسمون الذين يموتون في الحرب شهداء والبقية موتى، أصبح تاريخهم يُدرَّس في المدارس، ونالوا حقهم الذي يستحقون كما كان يقول أبي دائماً، وتاريخهم هو تاريخنا رغماً عنا، أو أني سأقرأ لفيلسوفٍ ما، أو صحيفة الصباح التي تحكي الأحداث في كل يوم، وتختصر مسافة الخروج للشارع لرؤية ما يحدث، وتملأ

رفوف مكتبتي، أكره ما حدث وما سيحدث، وطوبى للأحداث التي تخلق الاختلاف والتناقضات.

هذا الصباح وكالمعتاد يَضِجُّ العالم كما في كل صباح، تنهض المدينة بكامل وعيها وكامل زحامات الطرقات بالمارَّة وأولئك الذين ينتظرون حافلات المواصلات على جوانب الأسفلت وتحت المظلات، يتجهون نحو أعمالهم في الصباح الباكر، ويكررون ما يحدث في كل يوم، لا جديد سوى الأرقام المتراصَّة.

يدَّعون الحداثة وهم يفعلون كل شيء كما كان بالأمس، وأنا اعتدت شرب فنجان القهوة في كل صباح، قبل لحظات سمعت صوتاً كمن يخاطب نفسه، وأنا جالسٌ على الكرسي المقابل للطاولة الذي أجلس عليه عدة ساعات كل يوم، ولا أكتب شيئا سوى الرتابة التي تجالسني وأنا أحاول تقليب صفحات كتاب تاريخ، أدركت أخيراً أنه صوت الأوراق التي تدعوني فقط لإمساك القلم، وهي وحدها ستستدرج الحروف لتصنع روحاً من حبر.

ماذا الآن بعد هذا الفتور المباغت؟ هكذا سألت نفسي ثم ارتخيت على الكرسي الخشبي المهتز، أسترجع حروفك المتكسِّرة على ذاكرتي، لا شيء سوى حواء المعلقة على أطرافي الواهنة التي لا تحتملها، هكذا أتاني الجواب بعد ارتداد الصوت من الكتب التي تحمل تفاصيل غامقة، تأخذ انطباعًا من لونٍ آخر، عندما تسقط بكاملها

على أطراف كهفي الصغير «مكتبتي»، الذي أقيم فيه ويحتويك بكامل معانيك وجوداً نسبياً كما تريد لك مخيلتي أن تكوني، وكما اصطفاك لي الزمان أو اصطفاني أنا لك، كقول موافٍ للأحداث التي نسير عليها ولا نعلم إلى أين ستوصلنا، ولكن يخبرني حدسي أنه طريق مسدود، أو انحدار موجع ننزلق منه لنسقط على وحل المسافة، ونعلق في ذات الزمان الذي يجمعنا معاً، وذات اللحظات التي تدور بها ساعة الكون وساعة التاريخ.

ينزلق قلمي على الأوراق كمحبوبة ترقص وعشيقها الذي يُقبِّلها، فينخرطان في صرخة غارقة في أعماق المتعة، ينتشلانها لتخرج متقطعة كمن يأبى إعلان الإثم، ويتلاشيان على ورقة لا شيء فيها سوى السواد، ويبقى كلاهما يتساءل الآن لِمَ اجتمعنا في صفحة سوداء؟! كيف استطعنا رؤية بعضنا في هذا الظلام الحَالِك؟! وأنا أبحث في كل تلك الأوراق المعبأة بالحروف عن إجابة لهذه التساؤلات التي باتت تؤرقني، ولا إشارة لوجود إجابة هنا.

تسربت خيوط الهواء عبر فتحات النافذة تذكرني بوجودي، أعيش منذ عامين ذاك الزيف الذي ألبستِني إياه، ولا أزال أحاول إقناع نفسي به، عامين أعيش امتثالا لإرادتك وليس كما أرتضي.

اعذريني فقط هذه المرة، سأخرج من بين صفحاتنا التي عشناها

معاً حين نبتنا من أضلع الحياة آدم فقط، آدم كما أرادت لي الحياة أن أكون، لا أربط حياتي بشيء ، ولا حتى ببشر إلا نفسي، ولن تتقاسمني حياة الآخرين، ولن تربكني نظراتهم الساخرة، فقط سأفعل ما أريد كما كان أبي يعلمني دائماً، «أبي» رددت هذه الكلمة مرتين بتعجب دون أن أشعر، لا أعرف ماذا انتابني في ذاك الوقت، شيء ما شدني وأرجعني نحو ذاكرة أكثر من خمسة أعوام، وأنا جالس على الكرسي، ورقة قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين عاماً تحتوي على سطور هي أبيات قصيدة مكتوبة بقلم رصاص أوشكت على التلاشي، كتبها أبي وأسماها «عذراً»، وقعت على نظري الآن وأنا أقلب مذكرات أيامي التي أكتبها كالعادة في منتصف الليل، باحثاً عن ظرف قديم داخله بعض المستندات التي تخصني، أخذتني تلك الورقة بلونها المائل للأصفر إلى حقبة زمنية أكره العودة إليها، عرفت وقتها أن لأبي عشيقة أخرى، يرسل لها الأوراق عبر أصحاب سيارات الأجرة والمواصلات، وأحياناً يذهب بنفسه، أكره هذه القصيدة، أكرهها بحجم السماء، لا أريد لها أن ترقد بسلام داخل مكتبتي، لن أحتفظ بحقبة زمنية عشت فيها قسراً، ولا يمكنني رميها؛ فهي تحمل تاريخاً في أطرافها المطوية، ليس تاريخي، وخط يد لم يكن لي أيضاً بل للسيد الطيب كما كان يسميه أهل المدينة وأنا أناديه أبي، تلك التي كانت السبب

الأول والأخير في عزلتي التي أعيشها الآن، هي ذات الورقة التي عاشت كشعر مخضرم، أو ربما كتبها شاعر مخضرم يعيش داخله، فهذا الاصفرار على أطرافها يمنحها بُعد أفلام السينما العتيقة، أو كصورة قديمة فقط بالأبيض والأسود.

لا يزال كل شيء في مكانه حتى الآن، وصورتك لا تزال معلقة على الحائط الذي يقع أمامي، تقاطع جلوسي على الطاولة الخشبية، وأنا أكتب ملامح وجهك التي لا تبدو جيداً عليها، وأسترجع بعض اللحظات التي منحناها للأرشيف، وحزننا أحياناً ، وندبنا للماضي وبعض الأحداث لو أنها لم تكن.

أصبحت أراك فقط داخل إطار خشبي ملون بالأسود، وتختصرين كل تلك الكلمات التي أود أن أكتبها على ورقة فارغة لتمنحها حق الحياة، عندما أنظر إلى صورتك التي تبدين فيها كجمادٍ لا يتحرك، تختصر صورتك الكثير من التفاصيل التي كان من الممكن أن تُدَون على ورقة ليست مقواة كتلك التي تبدين عليها بنعومتك، وأحمر الشفاه الذي تضعينه يرسم على شفتيك شيئا لم أفهمه، ويمحو بقايا البراءة التي شبَّت على وجهك منذ الطفولة، لتبدي أكثر إغراء وأكثر تبرُّجاً، أفكر أن الذي التقط هذه الصورة، والعدسة التي وقفتِ أمامها لترسمك بطريقة مختصرة وزمن موجز، هما محظوظان أكثر مني، فصورتك المعلقة على الحائط تجعلني أشعر

بالصداع في كل يوم، بسبب تفكيري المتواصل وبحثي عن حروفٍ أبدأ بها تدوينك، تتكلفين كثيراً لتجعلي من نفسك أنثى أخرى، مغطاة بطبقة من مساحيق التجميل عندما تكون هناك مناسبة عرس، أو حين تظهرين أمام المجتمع، ربما لتبدي أجمل في أعين الشباب، وتصنعي الفرصة للحصول على شريك حياة، أو لتزيد حصيلة معجبيك من الشباب، وحدها صورتك تجالسني الآن، وتقص علي كل تلك التفاصيل، وأنا متكئ على الكرسي، وأستمع لصوتها المتقطع كجدتي العجوز حين تحكي لي قصة المساء، تذكرني صورتك بجدتي كلما أنظر إليها، لا أعرف ما الذي يربط بينكما، لا ملامح مشابهة ولا عمر، لا أعرف، وأظن أن الوقت ليس مناسباً لهذه التساؤلات الآن، فهناك شيء أهم يشبه صورتك، إنها لوحة رسمتها أنا، نعم رسمتها أنا قبل خمسة أعوام، حين كنت أدرس في المدرسة الثانوية التي تقع بالقرب من المنزل الذي أقيم فيه مع أمي وجدتي وإخوتي الصغار في البلاد، اللوحة الأولى التي أرسمها على طريقة فنان محترف، لا يزال الإطار الخشبي القديم الذي صنعه أبي قبل موته يحتضنها منذ خمسة أعوام، ويحمل أعقاب ذكرى موت أبي التي أراها كأنها حدث لم يمر عليه سوى سويعاتٌ قليلة، كأن جنازة أبي تُشيَّع الآن أمامي وموكب السير الذي يتبع الجثمان، النساء اللاتي يبكين بشدة حتى يكاد صوتهن يصل كل الكون،

والرجال كل يحزن على طريقته، أبي توفي بسبب المرض، وأنا لا أزال في المرحلة الثانوية، كان يخبرني دائماً أنه يريدني أن أصبح طبيباً، لم أعرف سبب إصراره على دخولي كلية الطب، ربما هي رغبته ويريد أن يرى أحد أبنائه طبيباً حين لم يستطع هو أن يصل إليه، وبما أني كنت أقرب أبنائه إليه، فمن السهل عليه أن يرمي علي كل عبء لم يستطع تحمُّله دون أن أشكو أو أتذمر، شعرت أني أصارع الموت حين احتضنني جارنا العجوز في وفاة والدي، لم أتحمل وقع كلماته وهو يخبر أمي بموت أبي قبل عملية مستعجلة كانت ستُجْرى له بعد دقائق فقط، تسبب الخبر في إجهاض أمي التي كانت تحمل المولود الأخير من أبي، وأصيب أخي بالشلل بسبب الصدمة ولا يزال يعاني الشلل حتى الآن، ولا أظن أنه سيترك المقعد المتحرك ثانية.

يحمل هذا الإطار الخشبي القديم الكثير من الحكايات وذاكرة الأيام التي مررت بها، رغم أن هناك عدة إطارات كثيرة أجمل، ولوحات أجمل من هذه الأولى، أنجذب دائماً لهذا الإطار القديم الذي يعاني الهرم مقارنة بأقرانه الذين لا تتعدى أعمارهم عدة أشهر أو عدة أيام، ربما لأنه يحمل بعض وصايا والدي، أو ربما لأن نجاحي في رسم هذه اللوحة كان بسببه، فهو كان رجلا مولعا بالرسم والكتابة، يكتب كثيراً عن الحب والبلاد، ولكن يفضِّل

أن تبقى أعماله على الأوراق البيضاء التي كتبها عليها، بقلم الحبر الذي يحمله دائماً في جيب سترته.

الآن ما الفرق بين لوحتي الموضوعة على الطاولة وصورتك المعلقة على الحائط؟

كلاهما مؤطر بالخشب، وكلاهما يسحبك لإدراك شيء ما، ولكن لوحتي مرسومة بالرصاص وفرشاة الألوان التي تشبهني كثيراً، لا تحب التفصيل وموضوعة على جانب منسي في مكتبتي، وصورتك تكاد تكون أول شيء أراه عندما أفتح الباب، لا تشبه لوحات دافنشي وبيكاسو، لا تحمل مشاعر كما اللوحات، الصور التي يتم التقاطها عبر الكاميرات لا تحمل شيئا سوى الوجوه التي تبتسم قسراً حتى تبدو أجمل أمام العالم، وأمام العدسة التي تختصر حركات معصم الفنان لتجمعها كلها في ضوء أبيض يتناثر على الغرفة لأقل من ثانية ويختفي من جديد، لا أحب الصور التي تُلْتَقَط على عجل من قِبَل المصورين الذين يغتالون الجمال على المهد وهم لا يدركون ذلك بكاميراتهم المواكبة للحداثة الزائفة.

لكني لا أشعر برغبة في الرسم، ربما سأكتبك، في الكتابة أيضاً لوحة خفية ورسم بطريقة غير مباشرة، جميع القصائد والروايات تحمل لوحات خفية يراها فقط من يجيد القراءة، بعضها يحمل لوحة للوطن، وبعضها يحمل لوحة مرسومًا عليها حبيبان يُقبِّلان

بعضهما تحت ضوء المساء، لكن القراء يرونها من زاوية واحدة، وبعضهم لا يفهمها إلا الذي رسم حروفها، وأعتقد أن لوحاتي وأوراقي هي الشيء الوحيد الذي أمتلكه، هويتي التي بحثت عنها كثيراً، والشيء الوحيد الذي ينوب عني عندما أموت، صديقاتي هن اللوحات، أجالسهن كل صباح لأسمع قصصهن التي اصطنعتها أنا كأني أسمعها لأول مرة، ويقابلنني كل مرة بذات الابتسامة كما في كل يوم.

تبعث ميشيل الكثير من الرسائل، ميشيل الفتاة التي تعرَّفت بها في المقهى وصارت صديقتي مصادفة، حين التقينا لأول مرة سألتني إن كنت عربياً، لَمْ أعرف جدوى سؤالها فبعض الفرنسيين يحتقرون العرب، وبعضهم يرون أنهم أساس الوجود حسب الدراسات التي يعتقدونها هم والعلماء العرب في العصور القديمة، لذلك تراسلني كثيراً، وتتحدث عني أكثر، وبالتأكيد لم تكن تحتقرني، بل ترى أني بِذْرة عالِم عربي ستنبت قريباً، تبدي إعجابها بي كلما التقينا، وكلما أتاح لها التاريخ ذلك، وأنا أتنصل منها قدر ما أستطيع، وكلما جادت لي الفرصة بمغافلتها، وفي ذات المقهى كان لقائي الأول بكِ في حين كنتِ تجلسين وحدكِ على طاولة في ركن من المقهى، تضعين أمامك كوباً من العصير، سارحة بنظرك نحو السماء عبر النافذة، بقيت أنظر إليك خلسة وأنا أقرأ كتاباً تاريخياً، لا أحب التاريخ

وإنما أقرأه قتلاً للوقت فقط، ومحاولة للفت انتباهك، أو بالأحرى لأبدو مثقفاً أمام العالم، وميشيل تصطنع الأعذار لتتحدث معي، تخلق أسباباً من لا شيء وأتفه الأشياء فقط لأجل التحدث.

طلبت مني أن أحدثها عن ثقافة بلادي، والثقافة القديمة ما قبل الحداثة، ولم أكن أنا في مزاج جيد لفعل ذلك، لا أحب أن أغازل فتاة الآن، وهي تُصِر على أنَّ أحدثها، هكذا هن الفرنسيات، يرين أن التحدث لرجل عربي امتيازًا ، كما فتيات العرب اللاتي يرين أن التحدث للأجانب له نكهة خاصة.

صنعتِ المزاج من حيث لا وجود لي فيه، وأنتِ تدخلين المقهى في ذاك اليوم، جعلتِ كل الأوقات ملائمة لك، وصنعتِ مني موجة يحتضنها بحرك الهادئ فلا تثور أبداً.

سقيتِني كأس الحب لأول مرة، وثملت لأول مرة، ولكن ثمالتي من نوعٍ مختلف، وخمرٍ لا يتذوقه إلا عاشقك، جميلة أنتِ رغم عنادك وروح التناقض فيك، قضيت ليلتي تلك أتجول بين كلماتك عشقاً، هل أحببتك حقاً يا نوران، لم أشعر بهذا من قبل، ولا أعرف كيف يكون ذاك الشيء الذي يدعونه بالحب، ماذا فعلتِ بي حقاً؟! كأنك انتشلت قلبي من بين أضلعي.

أنا رجل لا أجيد التعبير عن شيء ما داخلي، لم أخبر أحداً من قبل عما أحمله تجاهه من مشاعر، لا شك أنها التقاليد التي نتبعها في

البلاد لا تزال تلاحقني وتمنعني من فعل أي شيء يخالفها، أتقيد بها دون سبب، لم تك ديناً منزلاً من السماء حتى نتبعها بكل ذاك التقديس الذي أصبحت أراه لاحقاً مجرد لوائح وهمية اصطنعها أجدادنا فقط لأجل منعنا من عيش الحياة التي نستحق، تقيدني تلك اللوائح المنقوشة على جدار الماضي بحبلٍ وهمي أختلقه أنا من حيث لا وجود له، وأكره وجوده الزائف، يمنعني من عيش حريتي كاملة.

تركت البلاد ولا تزال هي معلقة علي، وأنتِ أيضاً جزء من الوطن تعلق علي، ولكن بطريقة جميلة لم أستطع أن أرفضها، بل منحت نفسي كامل حريتها التي أعرف أنها مقيدة بالتقاليد مسبقاً، ربما هو كبرياء العروبة الذي توارثه العرب جيلاً بعد جيل، ويملكونه كمرض وراثي أو تَمَارُض يفتعلونه هم، يدَّعون الشرف الذي لم يعد له وجود بين بني الإنسان.

حتى أنتِ تمتلكين النزعة الوراثية حين تجلسين بشموخ الأنثى العربية التي تطغى أنوثتها على كل نساء العالم غيرها، وكبرياؤك هو ما شدَّني إليك، تراك تدخلين لأول مرة مكتبتي التي تشبه معرضًا لعرض اللوحات أكثر، اللوحات تطغى على الكتب بجاذبيتها، تشبه معرضا مجهولا لا يعرفه أحد سواي، كمخبأ سري للوحاتي التي أقوم برسمها حسب المواقف التي أمر بها في

حياتي كتجربة شخصية أو أراها في الشارع، تستوقفكِ بعضها فتقفين عندها مسافة طويلة، تتأملين تفاصيلها، وفي الأغلب تُعلقين عليها وتُبْدين إعجابك بطريقتك الخاصة، وأنا أقف بجانبك عند كل واحدة منها، وأتحدث عن المناسبة التي رُسِمت فيها، وما الشيء الذي أوحى لي بالفكرة، أراكِ تتجولين داخل المكتبة جيئة وذهاباً، وتتبعين بنظرك اللوحات المصطفة على رفوف المكتبة، فجأة تتوقفين على نَص مكتوب على ورقة مطروحة على الطاولة في الجانب الآخر من المكتبة، تتغير ملامح وجهك التي أراقبها منذ مجيئك إلى هنا وأنتِ تقرأين النص وتسألينني ببعض الدهشة: أتكتب أيضًا؟ أنت كنز من الأدب والفن مخبوء هنا.

أنا رجل أكتب الواقع فقط، ولا أعتقد أن الواقع أدب، بل أكتبه بغرض حفظ بعض اللحظات التي أعتقد أنها جميلة.

لفتت نظرك جملة مكتوبة على الجهة الأخرى من الورقة، فرفعتِ نظرك نحوي، وقلت بطريقة ساخرة ومتعجبة: ومن الملاك الوحيد إذن؟!

تذكرت تلك الورقة التي مرت عليها عدة أيام مرمية على هذا المكان، كنت أحاول أن أكتب عني، أنا بطل تلك الرواية التي على وشك أن تبدأ قبل أن تقاطعي قلمي وتصبحي الروح التي تمده بالحياة، فبدأت ألتقط حروفك من الذاكرة على عجل قبل أن

تتبخري من ذاكرتي، التفتُّ نحو طاولتي التي أجلس عليها عادة بسرعة كمن يريد إدراك شيء قبل فوات الأوان، تلك الأوراق التي بدأت أكتبك عليها ليست على الطاولة وهذا ما أريد، أخفي عنك نفسك التي أنزلتها جزئياً على الورق عادة عندما تقررين زيارتي، ولكن هذا اللقاء تم دون ميعاد مسبق، ولكنها مصادفة غريبة على غير العادة، لا توجد أوراقك على الطاولة.

تجاهلت سؤالك لي، وبدأت أختلق مواضيع يتلاشى بينها، قد تصنع الإجابة عليه مساراً جديداً لعلاقتنا التي لم تبدأ بعد، استدرجتك لبعض اللوحات طريقة مني لأجعلك تنسين الملاك الوحيد الذي هو أنا ولا أريد أن تعرفي ذلك، عقارب الساعة تشير إلى الواحدة منتصف النهار، وأنتِ لا تزالين تواصلين جولتك الفضولية داخل الغرفة الصغيرة التي كنت أسميها كوخًا، وأنت تسمينها معرض فنون صغيرًا، وتنظرين إلى اللوحات وبعض الأوراق التي كتبت عليها نصوص مسبقاً ليست للفرجة، جميع أعمالي لم تعرض للفُرجة بعد، ولم أر أنها أعمال يجب أن تعرض، الحزن والإحباط يسكن معظم لوحاتي، ولا أريد أن يرى العالم ما يسكن داخلي، يقولون إن الفنان يُخْرِج كل ما بداخله على الورق، وهذا ما حدث مع لوحاتي، لا أريد أن أجعل من نفسي فنًا معروضًا للفرجة.

عطرك لا يزال عالقًا بكفي التي صافحتك بها عند نهاية ذاك الموعد المباغت، وكلماتك تسكن صيوان أذني حتى الآن منذ أكثر من عامين حين قلتِ لي: ربما سنلتقي في صالة ما في متحف اللوفر حين تعرض أعمالك هناك، لا أذكر أني سمعت إطراء قبل ذلك لأعمالي المخبأة داخل الكوخ حتى هبط عليها الغبار والأتربة ولم يرها أحد غيرك، وإطراؤك كان طريقة أخرى للفت انتباهي نحوك.

ها هي المسحة وقلم الرصاص أمامي، وبعض الأوراق المبعثرة على الطاولة، سأكتبك الآن على طريقتي وسط تزاحم أيدي القراء، وسأتيح لهم حياتنا على الورق بطريقة ما، سأطرح كل هذا على أيديهم، أعلم جيداً أن بعضهم سيسبني وستعلو أصوات صراخهم قربنا، لكني لن أهتم، لن أهتم لكل ما يجري، سأصرخ تلك التأوهات المحبوسة داخلي وسأحررها اليوم، أعلم أنكِ لن تعطي أفعالي اهتماما كما تستحق، لا تجيدين سوى التركيز على الأصوات المنبعثة من بعض الأجساد حولنا فنكْتُم النشوة التي تتحطم على شفتيك كلما تسمعين صوتاً.

نظرت إلى فنجان القهوة الموضوع أمامي مباشرة على الطاولة يحاول إغوائي بشتى الطرق رغم علمه أنه ليس كوبي المفضَّل، أغمضت عيني أحاول الخروج من بين أضلعي لأخترق تفاصيلك

المظلمة، فأنتِ أنثى وضَعَتْها أوراقي بولادةٍ متعسِّرة، ولا أعرف عنك شيئا حتى الآن، وأوراقي أيضاً لا تعرفك كمخلوق مجهول يسكن دفتري.

حبيبتي امنحيني فقط هذه الفرصة للرقاد على صفحة تجمعني بك في ليلة حمراء مدوَّنة على دفتري، سأقتل آدم داخلك لأعيشك بكامل تفاصيلكِ أمامي، هذه المرة لن يأخذ مكاني أحد، سأكون آدم كما تريدين، كما خرجتِ من ضلعه الأيسر لتصنعي الجنون الذي لم يعرفه قبلك، أشبه آدم وتشبهين أنتِ حواء التي خرجت من ضلعه الأيسر، نشبههما حين نبتنا من بين صفحات بيضاء، وصنعنا قصتنا من عدم.

لا تزال عيناي مغمضتين، تسرب صوت حنجرة ساكسفون كيني عبر مسامات زجاج النافذة ليطرق طبل أذني كالمعتاد عندما تحين الثامنة مساء، يأتي الصوت عبر نافذة جاري من الناحية اليمنى يومياً حتى حفظت كل معزوفات كِيني عن ظهر قلب، أعرف متى يبدأ العزف ومتى يتوقَّف حيث تغط مكتبتي في سباتٍ عميق بعدها، نهضت أبحث عن كتاب يشبهك بين كل تلك الكتب في مكتبتي، ربما سيريحني من التفكير بكثرة، كتاب يقرِّب المسافة بين ذاك التباين الذي يتسع كلما اقتربت، ويسهِّل عليَّ تدوينك، ربما لن تَبدي كما أنتِ في الكتاب، لكن على الأقل تقريباً لك وهاتفي

يقربني إليك افتراضا للحظات كلما أنظر إليه بين لحظة وأخرى لأجده مرتخياً على الطاولة، ينتظر رسائلك التي توقظه من حالة الموت الجزئي التي يعيشها، كلما أنظر إليه أجده يتوجع ويئن متألماً من الشوق الذي تلبسه، أتردد دائماً في أخذ هاتفي والاتصال بك، أريد أن أخبرك بكل شيء، كل شيء وأتراجع عادة.

كنت أرى أن الحب وتلك المصطلحات «العشق ، الهوى، و....» لا توجد إلا في قصص الأساطير والناس يصدقونها ويحاولون أن يكونوا أبطالاً بادعائهم أنهم عاشقون، لم أتوقع يوماً أن أكون قيساً وأنتِ ليلتي، كنت أظن أني آخر من يشعر بهذا، لكن ربما استسلمت أمام أنوثتك الجامحة، قرأت الكثير من الروايات التي تحكي عن العشق وسمعت كثيراً عنه، لكن لا لم أكن أومن بهذه الأشياء، لم أر عاشقين حقيقة، في بلدتي الصغيرة الناس لا يحبون التفاصيل الكثيرة، يعيشون على الفطرة التي خُلِقوا عليها، لا يزالون يكررون الجاهلية الأولى، يتزوجون دون أي لقاء سابق ويتشاءمون من الإناث، لا يتيحون فرصة لكل تلك التفاصيل التي تصنع الحياة.

نمت تلك الليلة على معزوفة «وحيد» وشوقي منتشر على جميع أجزاء جسدي، كان نومي متقطعاً، أستيقظ بين الحين والآخر، أري هاتفي إن كنتِ قد اتصلت أو أرسلتِ رسالة، أنظر إلى

الساعة بين الحين والآخر، أنتظر اليوم التالي الذي يتيح لي فرصة أكبر للقائك، في الصباح تحمل المدينة عادة الكثير من الأحداث، وربما حدث لقائنا يولد في إحدى الساعات غداً.

اعتدت على رسائلك البسيطة التي لم أعرف أهميتها إلا بعد فقدانها، وأكره اهتزاز هاتفي الذي أضعه ليلاً على وضع الصامت، ليس لأجل عدم الإزعاج بل هو روتين يومي اعتدت عليه فقط، وصار شيئا من العادات التي أفعلها للاحتفاظ بترتيب أفعال حياتي اليومية.

أخيراً ها هي الساعات تحبو كالرضيع لتضعني على بداية اليوم الذي أنتظره، ذكرى أول لوحة أرسمها، تلك المؤطرة بإطار خشبي بلون مختلف، أقمت احتفالا صغيراً وحدي في السادسة صباح ذاك اليوم، أشعلت الشمع الذي أحضرته أمس خصوصاً لهذه المناسبة الصغيرة التي كنت المدعو الوحيد فيها والحاضر الوحيد، وضعته على شكل دائرة ووضعت اللوحة في منتصف الدائرة، ضوء الشموع وسط الظلام يعطي اللوحة جمالاً آخر، وذاك أضاف لي تساؤلا آخر وشيئا جديدًا، إذا قمت بإطفاء الشموع فلن أرى تفاصيل اللوحة بهذا الجمال، وستسود ذاكرة لوحاتي وهوايتي المفضلة، لن أطفئ الذاكرة إذن، سيبقى الشمع حتى يذوب.

لستِ من المدعوين في ذاك الحفل الصغير، أفضل أن أحتفل

بميلادها هكذا، وحدي، وأسترجع فجيعتي الأولى في الخفاء، لن يعلم أحد بتفاصيل حياتي، سأظهر للعالم هكذا بسطحيتي ولوحاتي التي سيفهمها بعضهم وبعضهم يشاهدها فقط للتسلية، الساعات تحبو وأنا أنتظر فقط ساعة واحدة لأخرج من هذا الكوخ المظلم، سأذهب إلى المقهى المقابل لمنزلي كما أفعل في كل يوم والذي تعمل فيه ميشيل، باريس في هذا اليوم تسير ببطء كعجوز تتوكأ على عصا تنتظر من يمسكها ليوصلها حملاً إلى المكان الذي تقصده، وأنا أحاول أنا أسبق الساعات لأصنع يومي الخاص وسط كل تلك التزاحمات.

جاري العجوز كالعادة يرتدي معطفه الصوفي ويجلس أمام المنزل ويحييني بالفرنسية كما يفعل في كل يوم، وفي الغالب أرد عليه أنا أيضاً بالفرنسية، وأقصد مقهى ميشيل لأجدها قامت بحجز نفس الطاولة لأجلي مسبقاً، فقد صرت أحد زبائنها الدائمين، أصبحت تعرف ماذا أفضِّل وماذا أكره، تحييني بالإنجليزية وتحضر كوب القهوة كما في كل يوم، وفي الأغلب تتحدث معي لبضع دقائق ثم تعود لعملها، تجيد اختلاق المواضيع التي تشد انتباهي وتجعلني أتحدث معها، هي فتاة مثقفة في العشرينات من عمرها، تضحك كثيراً عندما أخبرها إحدى الفكاهات العربية، احتسيت قهوتي تلك على عجل وخرجت من المكان في الساعة السابعة والنصف

لأجد باريس كعادتها تستيقظ على نفس الزحام كأنثى تنهض كسولة وتستقبل الصباح بتساقط الثلج على سترات المارَّة.

إذا لم تخنِّي الذاكرة فهذا اليوم هو تاريخ إعلان استقلال البلاد وانتهاء الحقبة الثورية التي كان جدي يحكي لي عنها كثيراً، عن الجيوش التي لم تكن صفوفها عسكرية وليست منتظمة كما الجيوش النظامية الآن، والرجال الذين حاربوا لأجل استقلال البلاد، ليس لكل تلك الأحداث وشهداء الثورة أهمية هنا، تاريخهم وعظمتهم لا تتعدى الحدود الجغرافية للبلاد، لا أحد يحتفل باستقلال بلادنا هنا، حتى الذين ينتمون لها، لا أعرف كيف تطابق ميلاد أول لوحة لي مع ميلاد بلاد بأكملها، ربما لأن جدي كان أحد الذين شهدوا الثورة، أو ربما لأنها تمثل وطناً على الورق، الآن كيف احتملت ورقتي كل تلك الأحداث وشهداء الثورة وميلاد وطن في آن واحد، وكيف استطاع قلمي مصادفة تجسيد كل تلك التفاصيل التي لم أشهدها ولم يشهدها هو أيضاً، أهي مصادفة حقاً أم أنها النزعة الوراثية تريد أن تجعل مني بطلاً من أبطال الثورة بطريقة ما دون أن أحمل سلاحاً وأقاتل في صفوف الجيش العشوائي.

كلما أبدأ رسم لوحة أو كتابة نصٍ ما، أتذكر كلمات أبي حين كنت في المرحلة الابتدائية، حينها كانت تجاربي مع الرسم فقط الخطوط المتشابكة وبعض الأشكال الهندسية التي لا تحمل أي معنى، لم

يكن معصمي يتحرك وفق مقاييس اللوحات التي تسكن مخيلتي، يتحرك بطريقة عشوائية عادة، انتابني اليأس بعد عدة محاولات فاشلة، فقال أبي محاولاً بكلماته إخراج الفن المدفون في ذاكرتي: عندما تضع الورقة والقلم أمامك تذكر الشيء الذي ترسم من أجله، الفن هو حديث صامت ويمكن استخدامه كطريقة أخرى للجدل والنضال.

النضال، هذه الكلمة التي تأقلم معصمي على تفاصيلها، وتمكنت من جعل تلك الخطوط المتشابكة بذرة تقاوم القحط الذي يسكنني، وتنبت في ظروف قاسية لتجعل أول لوحة أرسمها تجسيداً لها.

أذكر تاريخ ولادة تلك اللوحة وطريقة جلوسي على الكرسي الذي لم تكن أمامه طاولة، أذكر أني جعلت من ركبتي مسنداً للدفتر الذي أضع عليه الورقة، وأضع القلم والممحاة على منضدة قصيرة بجانبي، كان الهواء يحرك الورقة يميناً ويساراً وأنا أصر على إكمال اللوحة، حينها لم أفكر في بعد آخر لها سوى أنها ورقة تحمل بعض الخطوط المتعرجة والمستقيمة وبعض الألوان، لم أر كل تلك الأبعاد المتفرعة على زوايا ذاكرتي الآن، هل تراها ذات الورقة التي وضعتها على ركبتي قبل خمسة أعوام ورسمت عليها تلك الخطوط على عجل؟ هل كانت تحمل تفاصيل الوطن بكل هذا العمق منذ ولادتها أم أنها طفرة أصابتها لاحقاً؟ هذه المرة بدت لي على غير

المعتاد بتفاصيل معقدة تماماً كتلك الخطوط المتشابكة التي كنت أرسمها دون معنى.

متحف اللوفر يضج بالزوار هذا اليوم، كثير من اللوحات معروضة وأشياء أخرى، وقع نظري على لوحة الموناليزا المشهورة للفنان العالمي ليوناردو دافنشي، استوقفتني اللوحة كثيراً لعمق محتواها وتفاصيلها المعقدة، اللوحات معقدة دائماً، والفنانون وحدهم هم الذين يتمكنون من فهمها، تجولت بين اللوحات، بعضها يستوقفني وبعضها أمر عليه سريعاً دون اهتمام، ليس لأنها تفتقر إلى الجاذبية بل في الأغلب لأني لم أفهمها.

بقيت في المتحف عدة ساعات أنتظر شيئا ما، قدماي تجبرانني على البقاء وأنا أريد الخروج، هل ستعرض لوحاتي هكذا يوماً ما على المتحف؟ هل سأكون يوماً كدافنشي ذاك؟!

أخشى أن نعلق في وحل ينتظرنا عند منتصف الطريق فلا نستطيع العودة للبداية لنمحو آثارنا ونكمل من طريق آخر أو نكمل حتى النهاية، أخشى أن نظل عالقين معاً ولا نستطيع حتى أن نبعد عن بعضنا وسط ذاك الوحل، أخاف عليك من كل شيء حتى من نفسي، أخاف عليك من أنانيتي، أخاف أن يجرحك كبريائي وقد فعل يا عزيزتي، أخاف عليك حتى من حبي لك، أخاف أن أبتعد فتتوجعي بسببي ولو للحظة.

تبدين كأنثى لم تخلق من ذات الطين الذي خُلِقت منه بنات حواء، بل لك جمال من نوعٍ خاص مُنِح لك فقط.

****

عدت يوماً من العمل فوجدتك في منزلي، كنت شاحبة وعيناك تبدوان متعبتين من البكاء وبقع الكحل تغطي جفني عينيك، كنت تحملين هاتفي، لمست جيوبي ولكن لم أجده، هل يعقل أن هذا هاتفي، تذكرت أن ميشيل ترسل على هاتفي كثيراً، تحاول صنع علاقة بيننا، قد تكون تلك المتملقة.

سألتها: ما الأمر؟

أجابتني وهي تشير إلى الهاتف: اقرأ هذا!

كانت رسالة من ميشيل مكتوبة بالإنجليزية.

صرخت صرخة ثاقبة: هل تخونني مع فرنسية يا سليم؟! ألم تقل إنك لا تحب الفرنسيات؟ أثبتَّ لي أنك لا تحبهن، شقراء يا سليم؟ شقراء؟! لماذا؟ ماذا ينقصني حتى تذهب لفرنسية؟ هل حقاً تراها لعبة مسلية، ابتعد عني، أكرهك يا سليم، أكرهك.

لم أستطع أن أبرر موقفي معك، لكني لم أكن أحبها، أكره أولئك الذين يدخلون حياتي فيفرقون بيننا.

كنت أقيم الكثير من العلاقات مع الفتيات، لكن هي من يجعلنني أفعل ذلك، +لا تهتم بي، أشعر بوحدة عارمة رغم وجودها

بجانبي، لِمَ أصبحت لا تبالي؟

أدمنت الحب يا نوران، عندما أكون بمفردي أشعر بفراغ عريض فأحاول أن أملأه بإحدى الفتيات، ودائماً أشعر بهذا الفراغ معك، صحيح أنك تحبينني لكنك لا تجيدين الاهتمام بي، لا أعرف إن كنتِ تحملين داخلك شيئا نحوي، لكني غالباً أشعر أنك لا تهتمين لأمري، كل مرة أحاول فيها التقاط أنفاسي من بين ركام الخيبة أختنق بدخان الفشل من جديد.

يخنقني فراقك، جعلتِ مني مدمناً وتركتني، هل تحاولين أن تفطميني من حبك قبل إتمام العدة، ينكسر قلبي في كل مرة أخونك فيها.

مرت ثلاثة أيام على الحادثة وأنا أفكر أين يمكن أن تكوني، تسرب الخوف عبر مساماتي، حملت صورتك وذهبت أبحث عنك في الشوارع وأسأل المارة عنك.

أذكر كلمات ذاك الشيخ الفرنسي، سألته إن كان قد رآك قال لي: أهي محبوبتك؟! يبدو وجهك شاحباً يا بُني لا تستسلم .. ستجدها.

صليت كثيراً من أجلك، أدعو الله ألا يصيبك مكروه.

وبعد خمسة أيام من الحادثة أسير على رصيف الطريق والخيبة تسري في عروقي، عيناي تؤلمانني وجسدي خائر ومريض، قدماي

ترتجفان من التعب، لَمْ أترك شيئا لَمْ أسأله عنك حتى أشباح الليل، لم أستطع النوم، تمنيت الموت والخلاص من هذا، أعلم أني لن أرتاح مرة أخرى.

أصبحت الأرض ضيقة بقدر لا يكفي لوضع قدمي عليها، وكأن السماء وضعت على رأسي المثقل بك.

جلست بجانب حائطٍ أرتاح قليلاً ثم أواصل البحث عنك، كان الجو مشمساً، ظهر شيء من بعيد أراه بشكل ضبابي كأنه شخص يحمل شمسية، لا أعرف إلى أين يتجه فعيناي منهكتان، لم أتمكن من الرؤية جيداً، لا أستطيع تمييز شيء فتركت الأمر للمخيلة، تملَّكني النعاس، نمت دون مقاومة ولكن لم تنتظرِي كثيراً حتى زرتِ أحلامي وقلَّبتِها كما تشائين.

سمعت صوتًا هادئًا كأنك أنتِ يناديني من بعيد، هل هذه أنتِ؟ هل يجب أن أستيقظ من سباتي لأعود لدائرة الحزن مرة أخرى؟ تبدين كمجنونة بشعرك المنكوش وعيناك لا تزالان تدمعان، أهذه أنتِ حقاً أم أن هذا حلم؟

استيقظت، كنت أظن أنك بجانبي حقاً، لم يكن بجانبي أحد، أجلس وحدي وسط عتمتك التي لا تنتهي، أصبحتِ كابوساً مرعباً وحلماً أتمناه.

أصبحت مشرداً أجلس على أرصفة الشوارع، أندب أحلامي

الماجنة، أخبرتني ميشيل يوماً أن الحب يسبب الجنون، هل سأصبح مجنوناً؟! أنتِ وجعي وفرحي، دائي ودوائي، ربما ستأتين.

أخاف النوم، وأخاف أن أستيقظ لأجدك كابوساً يراودني حتى في يقظتي.

تعلمين أني لست خائناً، تفتعلين الأعذار لترحلي.

وهنت، أصبح جسدي نحيلا جداً لا يحتمل الوقوف، مرضت وأنا على الشارع، لن أذهب إلى الطبيب، أريد أن أموت، أتقيأ ولا شيء يخرج من معدتي سوى خيوط لعابي المريضة، معدتي فارغة، لم أتناول شيئا منذ أكثر من أربعة أيام.

يحاول قلبي رميك بعيداً لكنك لا تريدين الخروج، تمنيت لو تقيأتك في تلك اللحظات، كنت سأرتاح، لم تعاندين؟! لم لا تتركينني؟ على الأقل سيكون هذا أفضل لي.

يؤلمني حبي لك وتؤلمني كراهيتي لحبي لك.

****

تعلمين ما تفعل بي رسائلك، تكبسلني داخل إطار من التفاصيل الصغيرة التي لا تهمني وتقيدني بهاتفي بأسلوبٍ عشقته وكرهته في ذات الوقت، أكاد أراكِ وأنت تجمعين خصلات شعرك المتناثر بعد أن تبعثر على الفراش بفوضى ويداعب عنقك بهدوء كروتين يومي تغوين به الصباحات، وتفقد براءتها حين تختلس النظر إليك وأنت

تقفين أمام المرآة تسرِّحين شعرك المبتل بعد حمام صباحي، أراك حين تحتسين القهوة وتغازلين أطراف الدقائق بابتسامة تداعب شفتيك كلما مررت على الذاكرة لأدون نفسي بين تعقيدات صباحاتك التي أدمنتها قسراً، أكاد أجزم أني أعيش معك لولا فارق المكان، تبعثين لي الكثير من الرسائل في كل يوم تفصلين فيها ما حدث وما تنوين فعله، تختزلين المسافة على شاشةً الهاتف الذي أدمن الرنين لأجل رسائلك وينتظرها في كل صباح.

ترقدين خلف سكينة الأشياء كظلٍ ميت، وتقيمين في منزلي الصغير ومكتبتي وكل مكان يشملني كشبحٍ يريد الانتقام، ويختلس النظر عبر ثقوب الهدوء التي تطل عَلَيَّ من مسامات شاشة الهاتف، تنتظرين غفلة مني لتنفِّذي انتقامك وأنا أنتظر روح لوحة المفاتيح التي تبعثينها لي كل يوم دون جدوى، تشعرني بأن هناك أملا، أحتفظ بمحادثاتنا رغم أنها قد لا تعني شيئا بالنسبة لك، لكنها تختزلك حروفاً على الهاتف، كلما أقرأها أشعر أنك بجانبي، كأني أُلامِس كفك بقراءة حروفك، عندما تتحدثين معي أشعر أني في حلم لا أريده أن ينتهي، أتشبث بكل قواي الخائرة فأسقط ويسقط كل شيء، لم لا يتوقف الزمن هذه اللحظات فقط لنجتمع في ثانية عابرة، عدونا في لحظة هاربة، يركض بسرعة لدرجة أنه يسرق اللحظات قبل أن ننطق بكلمة، ويبطئ كجسدٍ مريض يمشي إلى

حيث لا يعرف كأنما أضاع الطريق، نبكي تلك اللحظات، نبكي كثيراً عندما نتألم، لا أعرف لِمَ نبكي عندما نشعر بالألم، ولِمَ نشعر بالألم أصلاً، لِمَ لا تكون سعادتنا سرمدية يا نوران؟!

كل شيء يبدو غامضاً، ملامح وجهك وأفعالك تبدو غامضة جداً، ومتقلبة المزاج، أحياناً أشعر أنك خُلِقْتِ لأجلي، وأحياناً أجدك الوحيدة التي ترسم تناقضاً لي على سطح الحياة الهش، أصدقك وأكذبك في ذات الوقت، ولا أعرف إن كنت أنت المنشودة أم لا.

تلاعبتِ بي كثيراً ، لا أعرف كيف استطاعت فتاة بريئة مثلك أن تتلاعب بي بهذه السهولة.

أذكر حين ارتعبنا من ذاك الشيخ، كان عربيا طويل اللحية مجعَّد الوجه، خفت كثيراً من عصاه الغليظة التي يحملها، وتلك السلاسل والأشياء الغريبة المعلَّقة على عنقه، كان يبدو كالمُنَجِّمِين والسحرة، وضع كفه على رأسي ثم قال: يا بني .. يقولون إن الذين يشيبون باكراً يكونون قصيري العمر، ثم نظر إليك وقال: حافظي عليه يا بنيتي، اعتني به فإنك ستفارقينه قريباً.

خفت كثيراً ذاك اليوم ، سألتني: هل تعرف هذا الرجل؟

ومن أين أعرفه؟ من أين ظهر لنا هذا؟ هل هو ساحر؟

حدثنا عن الحياة والحب كثيراً وأخبرنا عن أشياء كثيرة لم نعشها

يوماً وأظن أننا لن نعيشها أبداً.

أنتِ من مواليد نهاية يوليو، وأنا من مواليد نهاية ديسمبر، تعيس الحظ أنا، يقولون إن مواليد ديسمبر سعداء، كنت أومن بتلك المعتقدات التي اختلقها الناس وآمنوا بها، أحاول تصديقها، كنت أقنع نفسي بأني سعيد، لطالما صدقت أنك حظي الذي حصلت عليه، كنتِ كذبتي التي أصدقها دائماً، وتناقضاً كبيراً في حياتي، لم أعرف معنى التناقض قبل أن أعرفك، تجبرين كسري وتكسرينني ثانية، هل تعذبينني بهذا؟ كنتِ جحيمي وجنتي يا نوران.

لِمَ أقحمت نفسي في علاقة لا نهاية لها؟ لِمَ وضعت نفسي في هذه المتاهة التي لن أجد الطريق للخروج منها؟ ارحميني، أخرجيني من هذا، أنا شاب بسيط، أتمنى فقط عيش حياة هادئة بعيدة عن صخب الحب وعذابه، لا أومن بالترف، لا أحب أولئك الذين يتفاخرون بثرواتهم.

تؤمنين بالحب وأنا أومن بالنصيب، تنتقدينني عندما أقول لك أومن بالنصيب، سألتك ذات يوم: لم لا تؤمنين بالنصيب؟ أجبتِني قائلة: لأن النصيب يأتي بسبب الحب، ولولا الحب لما كان النصيب، لم أكن أومن بما تقولين.

عندما أحببتك أعدتِ صياغة حياتي، أعدتِ صياغة تفكيري، وغيرتِ انطباعاتي تجاه الأشياء، عبثتِ بي كثيراً، تغيرت من أجلك

كثيراً، ولكن كلما أفعل شيئا محاولاً إرضاءك أشعر بأني لم أفعل شيئا حتى تغيرت صياغة حياتي كاملة ولم تحرِّكي ساكناً، يقولون لا يجب أن نتغير من أجل أن يحبنا أحد ، لكنك أعدتِ تشكيلي كما تريدين دون حتى أن تأخذي إذناً مني.

من أنتِ؟ ربما طلاسم لَمْ أفهمها، لَمْ أكن أعرف عنك شيئا، ليس ما يؤرقني ماضيك كما الكثير، فأنا لم أتجاوزك حاضراً، لم أعرف ماهيتك كمخلوق، استفهام أنتِ في حياتي، ورغم كل هذا أشتهيك غموضاً، أشتهي عنادك، يبدو أنني انغمست في لعبة الغموض تلك معك.

تعرفين عني كل شيء، ولا أعرف عنك شيئا، تعرفين أني أعشقك ولا أعرف إن كنتِ كذلك أم لا.

أتيتِ فجأة إلى حياتي دون إذن، باغتِّ أحاسيسي، فتنتِ مشاعري، وربما أجدك في لحظة ما تتلبد بين الخيال والحقيقة أصبحت من أخوات كان، أريدك بشيء من المجون بجانبي، تلعبين بي، تشتهين فراقي كَسَادِيةٍ حقيرة، تعلمين أني أحبك ورغم ذلك ترحلين، سادية أنتِ ومجنونة، انجرفت مع شلال الرغبة الذي يقودني إليك، لكنني لم أستطع أن أصل إليك رغم أني أعرف مكانك، شغلتِ مكاناً رفيعاً داخلي.

عرفتك صدفة ولم أعرفك، يغطيك غموض لم أفهمه؛ حاولت

تفكيكك كما تفعلين بي، ولكني لم أستطع فعل ذلك، مغلفة أنتِ بشيء أكثر من أن يطلق عليه غموض.

جذبتِني كمغناطيس، وأنا راضخ كمعدن بلا مقاومة، انقدت خلفك دون أن أفهم تفاصيلك.

تصفحتك بحثاً عن شيء يدل على وجودي بين ركام غموضك لعلي أجد صورة معلقة على أرشيف ضحاياك، أو ملفات الباحثين عن فرصة معك فلم أفهم شيئا، لا يمكنني فك شيفراتك، كانت علامات مبهمة كطلاسم ساحرة.

مددت يدي ببطء أتصفح البقية، أقلب الصفحات بسرعة، فأنا لا أفهم تلك الرموز، حاولت تجاوزك تفاصيل، والقبول بك مبهمة، في كل مرة أحاول تصفحك لا أفهم شيئا، أصابني اليأس، لن أجد رمزاً خاصاً بي، تبقت صفحة واحدة ويُغْلق الكتاب، أبحث عني في تلك الصفحة التي تجسد فاصلا مصيريا بيني وبين نفسي ، تبدد اليأس، تبعثر فكري أشلاء على تلك الصفحة، كانت صورة لي، باهتة اللون ملطخة بالدماء وعليها أثر بقع كأنها دموع، لم أفهم ما معنى هذه الدماء، هل تم اغتيالي داخلك، هل أنا الضحية الأخيرة أم الأولى، لم أفهم هل أنا قرأت الكتاب مقلوباً أم كان معتدلاً، وإن كنت أنا الضحية فمن الذي يبكي على فقداني.

هل اغتلتِني فعلاً أم أنك تخططين لذلك؟

لم أستطع قراءة التفاصيل، تكتبين بلغة مبهمة تدونين بها تفاصيلك، ماهرة أنتِ في كتابة نفسك والمحافظة على أسرارك، لم أفتش دواخل حواء غيرك، ولم أجد دهاليز أكثر تعقيداً من متاهاتك المعتمة.

في بدايات العقد الثالث لي على وجه الأرض تملأني نشوة المراهقة، يغريني جمال حواء بسهولة، الفتوة تسري في جسدي، خضت معركة العشق تلك بكل ثقة، لم أكن أعلم أنها منْهِكة إلى هذا الحد.

رجعت بعد يوم عمل شاق إلى المنزل، جلست على الأريكة في هدأة من الليل، أسترجع ذكرياتك التي تراودني دائماً بأنفاسي المتقطعة، تخرجين مع كل زفرة وتتشكلين سراباً كأنثى ثم تتلاشين كضباب.

تراودين أحلامي الحمقاء التي انفطر قلبي وأنا أندبها وأسترجع شريط الماضي، لم يكن هناك ما يستحق المشاهدة لكنك تغرينني بأبسط الكلمات.

تتدفقين مع زفراتي سراباً لا ينطق بكلمة حتى يختفي، لا أعرف إن كنتِ لا تودين الحديث أم أنها الفرصة وقصر المسافة.

قبضت أنفاسي لفترة طويلة لكنك لم تخرجي، علمت أنه ليس لديك ما تقولين، حررت أنفاسي فشهقت شهقة ظننت أنها ستكون الأخيرة لي معك، كنت وحدي مستيقظاً وسط عتمة الليل

في المدينة، نظرت عبر زجاج النافذة التي تمر به مئات الروايات أبحث عن نفسي بينها، لم أعلم أن باريس جميلة إلى هذه الدرجة في الليل؛ جميلة كجمالك، يبدو أنها سرقت جمالها منك.

جلست أحاول اغتيالك داخلي، سأغتالك فكرة داخلي لأعيش فرصة ثانية خالية من حواء مثلك، تنكرت كثيراً، صنعت الكثير من الأقنعة لتنفيذ جريمتي التي سأقوم بها لكني لم أنجح، تسميها صيرورة الحياة جريمة لكني لا أراها جريمة، من حقي حمل سكين وذبحك داخلي، فقد ارتكبت الكثير من الجرائم في حق الإنسانية، لا أعرف لِمَ أفشل في كل مرة أحاول اغتيالك فيها، كأنك لغز أبحث له عن حل ولا أجده، كتلة متحركة أنتِ على هيئة إنسان، ليتني أستطيع انتشال قلبي من بين حطامك.

سمعت أنك ستعودين للبلاد، لم أرك منذ ذاك اليوم، بقيت أنتظرك دون جدوى، عرفت أني لن أراك من جديد، علقت بين انتظارك وآمالي العقيم، عقيمٌ حقاً هي آمالي، لم تكن تلد سوى الذكريات، ذكريات حمقاء.

جلست على مقعد صغير من الذِّكْرى ألملم أشلائي المتناثرة على صفحاتك الغامضة، ألتقطها كذرات غبار علقت على قطعة ورق، إلهي كم صعب التقاطي منك يا نوران! رغم صغرها كانت تلتصق بقوة، لن أكون حبيسك يا نوران، لن أكون كذلك أبداً،

أعاند نفسي ألا أكون كذلك، لكن يغلبني الشوق فأبكي، أبكي بشدة، يعتصر البكاء أمعائي حتى أشعر بمرارة الألم في حلقي.

عندما ذهبتِ ظننت أن مهمة اغتيالك أصبحت أسهل، لكن يبدو أنها صَعُبت، لم أكن أعلم إن كنتِ قد ذهبتِ أم لا، وهذا ما يجعل المهمة أصعب.

أحاول نسيانك لكن ذكراك تراودني، كل شيء يذكرني بك، كل شيء يذكرني بلا شيء متعلق بك، نعم لا شيء، كنت دائماً أرى فيك كل شيء ولا أرى فيك شيئا سواك، أشعر بالوحدة رغم كل ما يحيط بي، ليس سوى خواء، خواء غريب ذاك الذي يحيط بي، لم يكن عالمي هذا الذي نعيش فيه، بل كان الوسيلة الوحيدة للوصول لعالمك الصغير الذي نسكنه نحن وحدنا، فقط نحن، لم يكن العالم إلا الصراط الوحيد الذي يوصلني إليك، رغم صغر عالمنا أجده أنا واسعاً يكفي لوضع أحلامنا التي دونَّاها على أكفنا.

خواء وعتمة لا أكاد أرى فيها يدي، تلفتُّ حولي لعلي أجد ثقب أمل يخرجني من هذه العتمة، لم أر ما أبحث عنه، كل ما أراه سواد، سحاب من الظلام يحيط بي، وفجأة شعرت بفراغ مفجع تحت قدمي، وكأني سأسقط في هاوية لا نهاية له.

لم تكوني حوَّائي التي أحلم بها، كل مرة أغتال فيها فرصة تنمو أخرى أفظع، ظللت أترصد الفرص حتى التهبت أحشائي من

الوجع، لم أكن أومن بفرصة ثانية، لم تكن تلك الفرصة التي لا وجود لها أصلاً سوى مورفين نخدِّر به أنفسنا لتستمر حياتنا كما نريدها نحن رغم أننا نعلم أن بداية جديدة هي كذبة نصدقها محاولين مسايرة الحياة بسلاسة.

اختلقت معك البدايات من حيث لا وجود لها، أختلقها من لا شيء، أحقن نفسي ببداية جديدة، أحاول أن أُنْعِش حياتنا بها لعلها تبعث فينا روحاً مغايرة رغم إيماني أنها كذبة.

كيف يمكن لكذبة أن تغيرنا، لَمْ أَلْحُظ هذا إلا بعد هجرانك لي، لم تكن الكذبة كافية لتغيير ما اعتدنا عليه، لن نتغير بكذبة، لم تكن سوى حبات مخدر نبتلعها لنعيش حبيسي لحظة ثملة تشكل جزءاً صغيراً من لحظات انتظارنا الذي لم ينتهِ حتى الآن، لمْ نَعِشْ يوماً حبيسي لحظة وليتنا فعلنا، لو فعلنا لكان واقعنا أفضل الآن، لَكُنَّا نعيش الآن وطفلنا الصغير يلعب أمامنا.

ماذا الآن؟ نجلس فقط نندب الماضي الذي جمعنا وتلك اللحظات التي كنا فيها معاً، أندبها أنا بشدة، لا أعلم إن كنا فَرِيستَي القدر أم أنك متورطة في افتراسي، لا أعلم ولا أريد أن أعلم، لم يعد هناك أهمية لمعرفة الإجابة الآن، أحاول حصر نفسي بين حاضر أعيشه الآن ومستقبل ربما أعيشه.

جلست على شرفة الوحدة متحسراً على حماقتي، لم يكن الحق

لكاتب اعتاد على العشق والفراق والجرح على الورق أن يعشق فتاة مثلك، لم أدون رواية حب حقيقية طول فترة كتابتي، يقولون إن الكتابة عن الواقع أسهل، لكن أظنها أصعب مما يقولون عنها.

كنت أعشق فقط على الأسطُر، لم تكن أسطُري تجسد واقعاً، لكن هذه المرة سأحاول تدوين قصتنا على سطور كتاب، ستكون حياتنا متاحة للقراءة وقابلة للتزوير، سأنثرها على ورق يقرأها كل من يعرف اللغة.

ممتداً على أريكتي، منزويا على ركنٍ بعيدة من الشوق، تسرب الوهن عبر مساماتي حتى وصل كل جزء من جسدي، نمت كأني مجبر على النوم، عيناي تقاومان بشدة، أخاف النوم، أخشى أن تراوديني كابوساً، قاومت بكل قوة، أصارع الخوف الذي يسكنني والنعاس الذي غلبني في النهاية فنمت، كانت تلك فرصتك لزيارتي كابوساً مرعبًا.

استيقظت على إحدى كوابيسك، جلست على طاولتي وعليها ورق لا يزال بكراً لم يفض بكارته قلمي، لم يتذوق طعم ولادة رواية، ينتظر بعض الحروف تعيد حياته التي فقدها منذ رقاده على طاولتي يبحث عن نصف روحه الآخر الذي يندس داخل قلم حبر.

سأكتب قصتنا اليوم، كنت أومن أن نقل حياة على ورق أسهل

مما يكون حتى تذوقت التجربة، كانت كذبة سخيفة.

نظرت إلى الورقة أفكر، هناك الكثير من التفاصيل مبعثرة على أطراف ذهني أحاول استجماعها لأكتبها على صفحات مبهمة لتولد قصة جديدة، حياة تتجول بين الشوارع وعلى أيدي البشر لتتسخ بسواد نقاشاتهم البلهاء، مبعثرة جداً لم أعرف من أين أبدأ.

حاولت كتابة أي شيء ربما تتدفق الحروف بعدها فوضعت قلمي على الورقة في وضعية كتابة، تجمدت الحروف على سن القلم، حاولت مرة أخرى لكنها لا تزال مجمدة، هي أيضاً مبعثرة على تفاصيلك تحاول الخروج منها لتتدفق على فراغٍ في ورقة ما، لكن أنهكتها المحاولة فبردت قواها وتخثرت على حافّة سن القلم.

أنهكني التفكير أكثر مما ينبغي، كأني أكتب عن شخص أو شيء لم أعرف له وجود، حتى الحروف تصبح مجهولة الهوية عندما أريدها عارية كما ولدتها اللغة، ربما هي لعنتك التي تلاحقني، تحاولين منعي من وضعنا معاً على كتاب واحد، لِمَ تطاردينني؟

تركت بعض الورق والأقلام على الطاولة وذهبت لأُحْضِرَ صينية شاي عليها كوبان وسكر وإبريق شاي، وضعت القليل من السكر على كوبي، نظرت نحو الكوب الآخر، كان لك، كنا نشربها معاً وتضعين لي القليل من السكر، لا نخاف مرض السكر وإنما هي طقوس اختلقناها نحن ولها قدسية خاصة لي، «لي» وحدي، ربما

نسيتِها أنتِ لكني لم أنسَها، كنا نعتقد أن ممارستها تجلب الحظ، لا أومن بها بل أفعلها فقط لأجلك، لكن هذا اليوم مختلف، فعلت هذا لأجلي أنا، تناولته كمُنَشِّط وليس تقديساً لتلك الطقوس، وفجأة قفزت إلي الكثير من الأفكار، ذهبت في وقت متأخر من الليل، حاولت تدوين تلك الحروف التي تراودني وتغفو، تسرب النعاس إلى جسدي فنمت تلك الليلة على الطاولة.

لم تزورِيني تلك الليلة، هل كانت مهلة أُلْمِلِم فيها ما تبقى مني؟ أحاول أن أستجمع قواي لأنهض على أصابع الأمل وعمر جديد، لكني أسقط في كل مرة أحاول فيها ذلك، أسقط حتى أكاد أنكسر من الألم وأحاول من جديد، لم أفهم ما يجري حولي، ربما ما زلت في كابوس.

سأسكب ما تبقى منك حبراً على أسطر دفتر، ربما تكون أوسع من قلبي الذي لا يحتويك كاملة، سأُدَونك حياة على كتاب قد ترينه يوماً، ربما ترين حياتك كتاباً يتداوله القراء يوماً أو سطوراً تحتمل انتقادات القراء السطحية.

يكتبون ليرونا قصتهم، أو ربما ينسجون خيوط خيالهم على أسطر، لكني أكتبك محاولاً نزعك من أحشائي التي علقتِ بها بقوة، ربما تستقرين على صفحات كتاب ولن تراوديني مرة أخرى.

أحاول اغتيالك بقلمي فحتى السكين والرصاص يضعفان

أمامك، إذن سأُنَفِّذ جريمتي بقلمي، لن تشعري بالألم ولن أشعر أنا بالذنب، ستتم عملية الاغتيال على مرأى الجميع ولن يعلم أحد، سأعلنها وأصرخ بأعلى صوتي ثم أغتالك ولن يمنعني أحد، بل سيُعْجب الجميع بجريمتي ويتصفحون سلاحها باطمئنان.

لم تكن المرة الأولى التي أكتب فيها لكنها أول مرة أغتال فيها أحدًا، حتى قلمي يتردد في تنفيذ الجريمة، أصبح يتأتئ بحروف متقطعة، لا يمكن أن تكون جريمة كاملة، لم يكن يعلم أن البريء في فراغ مليء بالخطايا هو المذنب الوحيد.

وأخيراً وجدت الكلمات التي أبدأ بها روايتي «اغتيالك»، سأدون بهدوء ما أجده عالقاً على الذاكرة، ألتقط بسرعة لتهبط على الورق، أخاف أن أفتقدها مرة أخرى.

نظرت عبر النافذة الزجاجية، كالعادة باريس مكتظة بالعاشقين، حتى الطيور تجلس على الشرفة تحاول إغاظتي، شربت قهوتي مُرَّةً كما هو مذاقك، أحاول نسيان الأحداث حولي، أشربها ولا أعرف لها طعمًا سوى المرار، فقط أشربها كأنيس اعتيادي وروتين يومي، أريدها قصة تكوننا نحن «فقط» نحن، ليس أحدًا غيرنا.

بدأت أسجل أسطري الأولى من الدواوين التي ترقد على جانب صغير من ذاكرتي، لكنك عاشقة لا تجيد فضح تفاصيلها أمام أحد وبالتحديد أنا.

اكتشفت أن كل تلك الدواوين كانت فقط ورقًا وهميًّا يملأه الغموض، طريقة منك لاستفزاز ذاكرتي، أخذ غموضك حيزاً فارغاً حتى وهو فيه كذرات الهواء المعلقة في فراغ ما، فارغاً رغم تلك الذرات العالقة فيه، قلَّبته فلم أجد سوى ورقٍ أبيض.

وضعت القلم ثم نهضت عن الطاولة أحاول حل طلاسمك المعقدة، وقفت لبرهة ثم جلست أعاود الكتابة مرة أخرى، أريد أن أنتهي منك حقاً، أريد أن أسكب ما تبقى منك حتى آخر قطرة.

التاسع والعشرون من شهر ديسمبر.

نزلت لأشتري صحيفة اليوم لأطلع على الأحداث كالمعتاد، لم أعلم أن هناك حدثًا غير معتاد ينتظرني في ذاك اليوم تحديداً.

تبقى فقط يومان على مرور عام، فقط يومان، تلك مسلَّمات يؤمن بها الجميع ويفعلونها في ليلة ذاك اليوم ولا أومن بها أنا، يطفئون الشموع ويتبادلون التعازي الحارَّة على عام توفي، يذبحونه ويقدمونه قرباناً يأملون أن يتقبل منهم القربان ليعيشوا عاماً جديدًا سعيدًا، يغتالون الأعوام في ذاك اليوم وينكرون جريمتهم أمام الزمن، يتبادلون الوعود الكاذبة مع أنفسهم ويكررون نفس عاداتهم، لكن هناك شيء غريب لم يحدث معي يوماً.

هل سردتِ قصتنا على صفحات؟!

تحاولين اغتيالي أنا بهذا الكتاب، كل حرف فيه موجه نحوي، لِمَ يدور الزمن ليرجعنا إلى تلك الأيام؟ تعلمين أني لن أعود فلِم تحاولين استدراجي؟ كلما حاولت أن أُلْمِلم أطرافي لأنهض أسقطتِني مرة أخرى.

هل كانت سطورك تلك لاغتيالي أم أنك تحاولين نفخ الروح بها في جسدي المتداعي، هل كتبتِها لذبحي أم لإحيائي يا نوران؟ لا أريد

أن أحيا، أفضل أن أكون هكذا بين الموت والحياة.

كل حرف فيه يختزلني رغم أنك لم تستخدمي اسمي ولا شيء يدل على أنه لي، لكني أعرف أنه لي، تحتقرينني بكتابك وكل سطر وكلمة فيه، يحتقرني بكل ثقة، كأنك تقصدين أن أشعر هكذا وأنا أقرأه، تعلمين تماماً أني سأقرأه ولن يفهم القراء عمق كلماتك، لا أقرأها أنا كلمات بل كانت قرصاً صلباً تحاولين فيه تصوير حياتنا الباهتة، نعم باهتة جداً لدرجة أني لم أرها بوضوح، تقصدين أن توجهي لي رسالة لم أفهم ماذا تريدين بها.

العالم كله يستعد للاحتفال بسنة جديده تَبَقَّى لها يومان، فقط ثمان وأربعون ساعة تبقت لتنفيذ المهمة، لم يكن يميزه شيء سوى الأكاذيب وجريمتهم الشنيعة التي يرتكبونها كل عام، في نظري لم يكن سوى يوم أكاذيب وهذا ما يميزه حتى عندهم وهم يعلمون.

ينطقون ويقولون «عاماً سعيداً» وهم يعلمون أنهم سيكررون نفس عاداتهم ولن يتركوها، ربما يكون عيداً، ولكنه عيد حزن وذكرى لجريمة شنيعة يكررونها في كل عام وأكاذيب، فقط أكاذيب، هل صنعت لديسمبر أيضاً كذبه؟! متى حدث هذا؟ هل غفوت أنا كل هذه المدة؟!

حدث هذا اليوم أيضاً من قائمة الأحداث المتعلقة بك، ليس تاريخاً مميزاً بما يكفي لوضع حدث، وبالتحديد حدث متعلق بك،

لا أحب الصيغ غير المميزة للتاريخ، لم تكن 29/ 12/ 2015 صيغة مميزة لوضعك حدثاً عليها، لكن كعادتك تظهرين في الأوقات غير المناسبة، وهذا يثبت أنه عام جديد فقط بتغير الأرقام في لعبة الزمن، لا يصنع فيها جديدًا، حتى الكذبة أصبحت مُعَادة فمَلَّ منها العالم وأصبحوا يفعلونها كواحدة من بين المسلَّمات عندهم ولا يقصدون بها شيئا سوى عادة وجدوا آباءهم يفعلونها ففعلوها، ربما لأنهم لم يتمكنوا من صنع جديد فكرروا ما يحدث عادة.

كأنهم أدركوا أنهم إن فعلوها أم لا سيبدأ العام، يفعلونها فقط لمجاراة الأحداث كشيء بديهي.

تأتين دائماً بلا مقدمات لتنبشي قبرك داخلي بعد أن أواريك بكومة من تراب الأحداث، ترممي ما تبقى منك لتكوني نفسك داخلي، لم أعلم أن تلك القطع الصغيرة هي متنفسك الذي تستعيدين به روحك، حاولت إخراجك مع أنفاسي، تنفستك سراباً يخرج مع كل زفرة ليعود بشهقة تليها.

إذن أنتِ كذبة أبريل هذه المرة، نعم أنتِ التي اصطنعت الكذبة وأنا صدقتها.

أنتظر ذاك اليوم، أنتظر كيف ستكتمل جريمتي التي استمرت كثيراً أم أنها لن تنتهي، هل سيكون مميزاً كما يدعون.

أصبح الوقت ساكناً لا يتحرك، توقف هنا تحديداً ليتركني أنا جثة

متحركة وأنت عالقة بيني وبين لحظات لم تأت بعد.

ربما ستكون نهاية ما يحدث أو نهايتي أنا، أيهما حدث فلا فرق عندي المهم أنها النهاية، وأيهما كانت لا شك أنها ستكون حاسمة.

أستجمع قواي لأنهض جسداً لم يترك المرض جزءًا منه، نظرت إلى الساعة، كانت الثامنة صباحاً، تَبَقَّت أربعون ساعة، ما زال أمامي الكثير من الوقت، دائماً نبدو كلوحات على مرسم يرسم علينا الزمن كما يشاء دون حتى أن نحاول قليلاً أن نفعل شيئا، كل ما نجيد فعله في هذه الحالة هو الانتظار حتى مللناه، لم لا نجعل منه لوحة نرسم عليها ما نريد.

شاب أنا في العقد الثالث لي وأتمنى نهاية حياتي، يحتفلون بذكرى ميلادهم ويتمنون عمراً مديدًا، أما أنا أتمنى «فقط» نهاية حاسمة لما يحدث، ربما لا يعلمون أن ولادتهم تعني أنهم على شفير الموت، يحتفلون بتناقصهم وتقلُّص ما تبقى منهم، كأنهم يحتفلون بموتهم البطيء الذي يخدرهم عاماً بعد عام حتى يصطادهم وتكون النهاية، يفعلون ما يفعلون وأنا أنتظر تلك النهاية الرحيمة التي ربما لن تأتي أصلاً، مت أنا أكثر من مرة ولكنها لم تكن حاسمة، مت كثيراً ولم أمت حقيقة.

نهضت بجسدي المثقل أشيِّع جنازة يوم مضى، نظرت عبر النافذة الزجاجية التي تسجل ملايين القصص الَّتي تمر عبرها لتترك أثرها

واضحاً، الشارع مكتظ بالمارة يستعدون لاغتيال عام، وربما ستتم جريمتهم في خفاء معلن أمام الجميع دون أن يروا شيئا، حتى القضاة والحُكَّام يرتكبون الجريمة ولن يشعر أحدٌ بالذنب، ستكون جريمتهم أكثر وحشية من تشييعي ليومي، يفعلونها معاً ولا أحد يعاقب الجاني.

نظرت إلى تاريخ اليوم على هاتفي، إذن غداً هو اليوم المنتظر، انقضت أربع وعشرون ساعة دون أن أشعر، كأني في سبات عميق استيقظت منه لأجد كل شيء كما توقعت، يشيعون جنازتهم بعد أن ذبحوا عاماً وقدموه قرباناً، يتبادلون التحايا كتعازٍ حارَّة على قتيل قتلوه هم ويعزونه بأعين البراءة من جرم مشهود، لم أشهدهم أنا، بل شهدهم الزمن وشهدتهم اللحظات.

خرجت من المنزل وعلى بعد خطوات من الباب عزاني أحدهم، لم أحب تلك التعازي على بريء اغتالوه قصداً، رددت عليه بصوت لا يكاد يخرج من حنجرتي، حتى أنا لم أسمعه، لم أجاهر بالجريمة ولن أجاهر بها، اغتياله يقربنا من شبح الموت الذي ينتظرنا في مكان ما لا نراه نحن وهو جلي أمامنا كأننا عمي لا نرى سوى أنفسنا وهذا ما يرعبني.

وما معنى أن نميز ذاك اليوم إن كنا سنمارس عاداتنا ذاتها بعده، ربما هو شيء بديهي لا يملك معنى، وإن كانت بديهية لا معنى لها فلم

نتعب أنفسنا بتلك الأشياء التي لا أرى لها معنى أصلاً.

جلست على حافة الانتظار، شغلني ذاك القادم الذي لم أكن أجيد التنبؤ به، لست مُنَجِّماً ولا أومن بالمنجمين، لكن ذاك اليوم ذهبت لمُنَجِّم، نعم ذهبت إلى أولئك الذين يدعون أنهم يقرأون الأكف، أمسك يدي بكفه المجعدة، أحسست بجسمه المتهالك كأنه يطلب مني العون، إلهي هل أنا في حلم؟!

نظر إلى كفي بشيء من استغراب، شدتني طريقة نظره إلى كفي فسألته: ماذا هناك؟!

قال لي بطريقة أرعبتني: انتظر حتى أنهي عملي.

صمتٌ في حيرة، ماذا يجري حقاً؟ ماذا هناك؟ أحسست أني في انتظار لا ينتهي، عملهم غريبٌ حقاً هؤلاء، لَمْ أومن بهم ولن أومن بهم أبداً، نفد صبري من هذا قبل أن يقول لي: ستكون سعيداً اليوم، ربما لأنك سترى شخصاً تحبه، إلهي كم كان هذا غريباً، لم أصدق ما قال، لن يحدث هذا، لن يحدث.

رجعت بجسدي النحيل إلى المنزل، لا تكاد قدمي تحملني، أصبحت جسداً لا يُرَى لولا القليل من ملامح تشبه إنسان رسمت عليه، عالق أنا في انتظار تلك اللحظات التي يملكون لها تفسيراً، يقولون إنها علامات الموت وإنها تراود كل إنسان قبل أن يموت، مت أصلاً لولا ما تبقى لي، أصبحت شيئا متحركا لا شكل له، كأني

شبحٌ فاقد الوزن.

لا أزال أنتظرك رغم أنك مرض غريب أصابني لم أعلم له دواء سواك، ما أغرب أن أفكر بك وأنا ميت حي، مومياء مرت عليها دهور مهجورة في مكان مجهول، ما أغرب ذلك!

أنتظرك وأنتِ تباغتينني بين انتظار وآخر لتنبشي ذكراك وترحلي، بدأت أتهاوى منذ أن تركتني، بدأ جسدي يمرض ويضعف قليلاً يوماً بعد يوم، كنتِ روحاً انتزعت مني فأصبحت شيئا مبهماً لا روح لي، كنت أقاوم دون جدوى، قاومتك بشدة لكنك كنت أقوى.

توقفت فجأة، كانوا عُشَّاقاً يستمتعون بحياتهم على الشاطئ، اتجهت نحوهم بكامل أعضائي مخلوقاً خرافياً بخطوات ثقيلة على الرمال، حاولت نسيان ما مضى لعيش لحظة ربما تكون الأخيرة وكم أتمنى أن تكون كذلك، أقترب أكثر ولا يلحظ وجودي أحد، وما الفائدة من حساب الزمن، تلك الساعات، الدقائق، حتى الثواني كلها لم تعد مهمة، المهم أن اسمي مسجَّل على صفحات الحاضرين في هذه اللحظة وعلي أن أتمكن من اصطيادها وربما هي فرصة لم أتكرر فيها ثانية.

اقتربت نحوهم أكثر، وفجأة توقف كل شيء وتوجهت نظراتهم نحوي مع استغراب كبير كأني مخلوق فضائي، نظرت إليهم لدقيقتين أو ثلاث ثم تقدمت نحو البحر وبدأت أرش وجهي بالماء.

رفعت رأسي فرأيت فتاة تجلس على مسافة تبعد بضعة أمتار عني، أوقفت لعبتي ونظرت إليها، يبدو أنها مثلي تماماً، تضم ركبتيها إلى رأسها بيديها تنظر إلى البحر، كنت متردداً في الذهاب نحوها، لن أذهب، أعيش فرحًا لحظيًّا ربما تكون النهاية مباغتة.

توجهت نحو منزلي في ساعة متأخرة، باغتّني هناك، أشعلت نار الرغبة داخلي ثم هربت، هربت بسرعة خاطفة، تجيدين الهروب وتعرفين كيف تغرين رجلاً مثلي، تجعلينني أمتطي مخيلتي لأبحث عنك في مساحة صغيرة من عقلي ربما لا تكونين فيها، تجيدين مراوغتي كأنك أنا نفسي.

هل سرقت ذاكرتي؟ هل سرقتِها حقاً وتصفحت ما بداخلها؟ أم أنها تنبؤاتي التي باتت أوهامًا فقط، لم تكن تلك تنبؤات بل سرقتِني شخصاً كاملاً تعرفين عنه كل شيء.

اسمي سليم لكني لست سليماً أبداً، يقولون إن الاسم مرتبط بصفة يتصف بها المولود، إذن أين هذه الصفة؟ لا توجد، لم أعش يوماً سليمًا.

أصبحت مدمن مخدرات، أستعملها كثيراً، أستعملها محاولاً أن أتناساك بها، فقط أتناساك للحظات ثم تعودين كما أنت داخلي، أشعل سيجارتي الثانية والثالثة والرابعة، فقط في بضع دقائق، تعاندين أنت في البقاء وتعاند سيجارتي، تتصاعد أعمدة الدخان من

سيجارتي، ترتفع أكثر فأكثر لتشكلك دخاناً، أنفث الدخان مرة ثانية وثالثة فأراك في كل مرة أنفث فيها دخاناً، هل تريدين أن تنتقمي مني بهذه الطريقة؟ هل تحاولين قتلي بهذه الطريقة لتخفي جريمتك؟ أعلم أن السجائر ربما تقتلني، لكني أدخن محاولاً نسيانك وتظهرين في كل شيء أمامي، حتى دخان السجائر الذي أدخنه لنسيانك.

تظهرين مع كل دخان أنفثه على ذكراك احتقارا فأراك تبتسمين مستخفة بي، أخاف كثيرا لكني أعاود الكرة كلما تَيَسَّر لي ذلك، هل أنت جنية أوقعتني في الفخ؟

أصبحت مجنوناً، ولست مجنوناً إلا بك، أشتهي النهاية، أشتهيها بشدة.

ذهبت يوماً إلى طبيب نفسي، أردت أن أعرف إن كنت مجنوناً حقاً، أذكر أنه قال إني أستعمل المخدرات كثيراً، وعلي أن أوقف استعمالها، ولكن ماذا إن كانت هي ما يجعلني أعيش، كيف أتركها، لم يكن يعلم قصتي معها.

عدت إلى منزلي، أشعلت سيجارتي وبدأت أنفث الدخان على فراغ الغرفة، أنفث وأنفث حتى أكملت الأولى دون أن أشعر، أكملت عشر سيجارات في زمن وجيز وأنا أسعل.

لم أكن أرى شيئا من كثرة الدخان العالق داخل الغرفة، سعلت كثيراً، سعلت بشدة حتى تمزقت أحشائي وأنا أسعل، هل سأموت؟! ربما ستكون النهاية، أغمي على من شدة المرض، دخلت في غيبوبة طويلة لم أر فيها شيئا سوى صورتك التي تأتي كالمعتاد في أوقات غير ملائمة، ربما ستكونين الأخيرة التي أراها، سيحدث ما تريدين وسأموت يوماً، لا بد من ذلك.

استيقظت من غيبوبتي لأجد الدخان لا يزال عالقاً بغرفتي وأنا أسعل ولا أتنفس جيداً، خرجت من الغرفة، كل مرة أظن أنها النهاية

لا تكون سوى بداية حدث جديد، حتى هذه المرة مرضت ولم تكن النهاية.

قتلني اليأس دون سابق إنذار، عرفت أني سأصبح معلقاً بينك والذكرى، لن أستطيع الهرب منك، لن أستطيع، فشلت في كل مرة أحاول فيها ذلك، أجدك في كل مكان أذهب إليه، كانت صلواتي من أجل أن نكون معاً، أما الآن أصبحت أندب تلك الصلوات، أندبها بشدة، تحققت صلواتي لكن ليس كما كنت أريد أنا، تتشبثين بحياة تنبع مني بطريقة طفيلية، تعيشين على نزف دمي الذي ينكب على فمك الملطخ بجرائم لا أرى لها حدودًا ترسم وحشية جامحة عليك، تزيدين تعذيبي لتزدادي بقاء كترياق خلود.

تصفحت كتابك ذاك اليوم، كان فيلماً سينمائياً مكونًا من بطلين فقط، لم يكن مصوراً، لا أراه بوضوح فيلماً سينمائياً لحياتنا التي باتت سحيقة، صورة عتيقة فقط بالأبيض والأسود مع بعض التفاصيل الصغيرة التي لم تكسها الألوان رغم حداثتها، لم تكن حياتنا جميلة بما يكفي لتغوي الألوان فتحتضنها بهدوء، تعرين حياتنا أمام القراء دون أن تعلمي فتبدو سوءاتنا التي لا يراها أحد غيرنا، أو غيرك أنت تحديداً.

تفضحين ماضينا وتكسين حاضرنا عباءة سوداء غامقة فيصبح مجهولا يتجول بين التاريخ، بدت لي غريبة جداً تلك الأشياء التي سجلتِها عنا كأنها لم تكن لنا يوماً.

شيئاً فشيئاً بدأت أفقد رغبتي في كل شيء، حتى تلك الثواني المتزاحمة داخلي التي تنحدر من جهات متعددة لتتكالب علي بنهم شديد، تسمونها أنتم حياة، ولم تكن سوى وحشية البقاء على قيد الموت كمومياء تتجول على الشوارع تبحث عن قبر رحيم تغفو عليه بهدوء، كلما وضعت قدمي تأكلني نظرات الاستغراب كشيء مبهم متحرك.

عدت يوماً إلى المنزل ثملاً تفوح مني رائحة الكحول، خرج جاري الأنصاري مباغتاً سكوني، لم يتهمني بالفسوق بل حاول أن يسندني وسألني سؤالا حيرني، قال: يا بني لم تفعل كل هذا؟!

حقاً لم أفعل كل هذا؟ فتحت الباب ودخلت أفكر في إجابة مقنعة لذاك السؤال، لم أستطع إقناع نفسي بما أفعل، إذن أنا لا أعرف شيئا عما يدور حولي، هكذا أعيش حياة لا وجود لها ولا وجود لي أنا داخلها، لا أعرف كيف أعيش حياتي نقصاً كاملاً لا أمتلك سوى القليل من التفاصيل، ربما أنت ذاك النقص الذي سكن مفاصلي، تغفو حياتي التي أصبحت منسية في مساحة ما داخلك ترتاح فيها بسلام، حتى هي تعذبني بهجرانها إياي، أرقد كقتيل لا أعلم إن كنت ميتاً أم حيًّا.

هناك الكثير من الأسئلة التي تطرح نفسها تحيرني، أما أنا فأرقد على حافة الأمل الضيقة التي لا تكاد تحتملني، لا أعلم لِمَ أضع نفسي في حيز ضيق لا يحتمل شخصًا يكسر القوانين ويتجاوز الحدود، لا شك أني سأسقط في عمق بئر معتمة لا نهاية لها، كثير التطلعات أنا واحتمال حيز ضيق لي معجزة في حد ذاته.

ذهبت المكتبة لأشتري مجلة تكتبين فيها، كنت أتابعها فقط لأقرأ ما تكتبين في كل عدد، كنت أتشوق لما تكتبين، تسبقني لهفتي عادة لكن هذه المرة تغيرت كثيراً، لم أكن متشوقاً لذاك الحد.

كاتبة تجيدين مداعبة القراء بحروفك الناعمة، تجادلين أحياناً وتدونين رأياً أحياناً أخرى، ينجذب القراء نحوك، وأنا أيضاً أحد معجبيك.

فتحت الصفحة التي فيها مقالك، كان هذه المرة عن الحب.

«عن تجربة أتحدث، لم أعش يوماً تجربة حب حقيقية، عشت الكثير من التجارب لكن كانت كذبة ككذبة أبريل يدعونها ويصدقونها، يعرفون أنها كذبة ومع ذلك يصدقونها أولئك الذين اصطنعوها، يخلقون الكذبة محاولين عيش واقع أقل إيلاماً من أن تعيش وحيداً، صحيح أن هنالك صادقين لكن بنسبة واحد بالمائة والبقية يعيشون كذبة أبدية يحاولون إقناع أنفسهم بها».

آلمني قولك كثيراً رغم أني لا أومن بالحب ، قاس جدا، هل تعتبرين أني من القليل الصادقين أم البقية الكاذبين، هل هذا المقال دونتِه بسببي؟ وما تلك التجربة التي تتحدثين عنها؟

خلق مقالك الكثير من التساؤلات، هل أنا من خلق ذاك الفرق

فيك والتناقض أحياناً؟

سخّرتِ هذه السنة كل كتاباتك لتكتبيني على سطور كلما وجدتِ فرصة لفعل ذلك، لا أريد أن أكون حدث هذا العام، أن لست سوى رجل لا أملك استثنائية كافية لتجعلني مميزاً عن أقراني، عالق بين هاوية العشق وذاتك المنحرفة.

هرمت وأنا أحاول الوصول إلى النهاية، حكمتِ علي بالإعدام رغم براءتي، لا أعلم كيف تمكنت من وضْعِنَا في حيز ضيق بين الأسطر، أصبحنا صفحات بين أيدي القراء.

هناك بعض الذكريات تلوث الذاكرة وتترك عليها سواداً ، فنبقى نحن جالسين على حافة متداعية، كما أن هناك روايات تحيي الميت من إحساسنا، تخرجنا من دوامة لا تشكل جزءًا كبيرًا ولكنها تشغل حيزاً واسعاً منا، لكن أنت تسجلين عشقاً، تغوي القراء بقلمك الذي يداعب الورق بهدوء.

أعلم أن هناك روايات يشغل القراء حيزاً كبيراً من صفحاتها، وأخرى لا نستفيد من قراءتها فقط اتساخ ذاكرة وسوادٌ حالك يعلق علينا، لكن روايتك كانت الاثنين معاً، رواية تتقلب بين الاثنين، هل أنتِ رواية أدمنتها؟! هل أنتِ حب دائم أم أنك لحظة أحاطت بي وبقيت أنا حبيسها؟ هل ما زلت أنتظر حبًا فائتًا؟ ربما أنتِ نفسك تلك الكذبة الأبريلية التي تحدثت عنها في مقالك!

لم أنته منك حتى بدأتِني من جديد، بداية في منتصف الطريق غريبة جدا تلك التي فعلتها ومحيرة، كيف تصنعين بداية في منتصف الطريق، ربما هي بداية مختلفة؟ ربما منعطف لتغيير مجرى الحياة، أحاول الرحيل وتجبرينني على العودة، تظهرين لي بين الحين والآخر، تباغتينني حباً أدمنته وإدماناً كرهته، لا أكاد أنتهي منك حتى تأخذي أنفاساً عميقة وتتسربي خلال مساماتي لترسمي بداية جديدة، لم تكن

جديدة حقاً، إنما تكرار لما يحدث في كل مرة.

تستغلين ضعفي لتحرقيني وتنثري رمادي على خيانة عُظْمَى، ألُمْلِم أنا ذاتي محاولاً الرحيل لكنك تجبرينني على العودة لتكرري إحراقي مرة أخرى كأنك تستمتعين بهذا، وأنا أعيش رماداً متناثراً على أركانك الباهتة لا تفاصيل لها، فقط يغطيها شيء من الذرات المعلقة التي كانت أنا نفسي ولم أعرف، خطيئة أنتِ متجسدة على شكل إنسان، ولم تكن خطيئة أكبر من معرفتي لك، غارق في الخطيئة رغم إدراكي بذلك.

تمر الأيام ولا أزال أدمن الدخان والمخدرات، لا تزال رئتي تسود دخاناً يوماً بعد يوم ولم أنسك بعد، أذكر كل شيء عنا حتى تلك التفاصيل الصغيرة التي لم تكن واضحة، أدمنتك لكن بعد اغتيالك لي ولم أغتالك أنا بعد.

*****

الخامس من يناير يوم افترقنا، وها هو ذا اليوم يعيد نفسه ويتكرر وسط دقات التاريخ المملة، ذكرى ذاك النزف الذي بدأ ولم ينته حتى الآن، ذكرى تاريخية ربما تخلد في ذاكرتي أو ذاكرة التاريخ، ليس حدثًا يستحق التخليد بل يستحق الإحراق في ذاكرة النسيان، ربما لأني المضطهد فيه أو على الأقل أعد نفسي مضطهداً.

مظلوم أنا وجاحدة أنتِ، حتى قاضي الزمن الذي يحكم بيننا يأخذ

الرشوة منك كل مرة تريدين فيها ظلمي قبل أن أقدم شكواي التي يتركها على الطاولة دون الالتفات لها ويذهب وأنا على نهاية القاعة هناك أبكي، أبكي حتى تجف الدموع على جفني وترفض النزول، تنهار قواي من البكاء دون أن تلتفتا نحوي، أصمت فحتى البكاء يبتعد معكما، تصرخ جميع أعضائي بصوت عليه نبرات تعب: مظلوم فأصرخ أنا بصوت متشتت: ظالمة، جاحدة.

تجعد وجهي، اسود جفناي، أصبح جسدي هزيلا جداً لا يتمالك، أسعل كثيراً حتى تكاد تخرج أحشائي مع كل سعلة، أشم رائحة السجائر في يدي بعد إبعادها عن فمي والدخان يخرج من رئتي، أظن أن التدخين ينسيني إياك للحظة فقط.

أشعر أني بحاجة إلى طبيب نفسي أتعالج من الحالة التي غرقت فيها بسببك، ذهبت إلى الطبيب مرة أخرى وشكوت مشكلتي، سألني: لم أستعمل المخدرات؟ فأجبته بأني أحاول نسيان كذبة حدثت في حياتي، فسجل لي عدة مقابلات أسبوعية لكني لم أكن ملتزماً بها، لم أر لها أهمية.

ذهبت المقابلة الأولى، سألني أسئلة بدت لي أنها لا تحمل معنى.

سألني عن اسمي فأجبته: اسمي سليم

- حسنا سليم، كم عمرك؟

- خمسة وعشرون عاماً

- متى بدأت استعمال المخدرات؟
- قبل أربعة أشهر.

استمرت تلك المقابلة حوالي ثلاث ساعات شعرت فيها كأني مسجون، كانت مملة جداً، كم شعرت بالملل في تلك الساعات! لم أعتد الجلوس على كرسي طبيبٍ لفترةٍ طويلةٍ كل هذا، لم أتحدث مع أحد كل هذه المدة من قبل.

كانت المقابلة الأولى لي مع الطبيب لكني منذ أن بدأت المشوار فكرت أن تكون هذه هي النهاية، لم أر أن الحديث مع أحدهم مفيد لدرجة أن أضيع وقتي معه، فقط عندما أكون وحيداً أشعر بأن الزمن الذي أضيعه مع أحدهم يمكن أن أستغله لوضع بصمتي على كل لحظة تمر.

فقط اجلس وحيداً وستدرك أنك أضعت وقتاً كثيراً في حديث لا تحتمل عجلة الحياة إضاعة وقت فيه، ربما الكثير من الأشياء التي لا تهم.

عندما خرجت من المقابلة أحسست كأني كنت أحبس أنفاسي وحررتها الآن، حبستها طويلاً حتى أوشكت أن أموت.

كنت أذهب للطبيب مرة كل أسبوع، تلك المقابلات كأنها موت في تلك اللحظات، أموت في كل مقابلة أذهب إليها، استمرت تلك المقابلات شهرين، بعد كل مقابلة أكون أكثر كآبة من سابقتها، لم

أكن مريضاً نفسيًّا، بل مريضاً لا يعرف مرضي سواك، فقط أنت تعلمين مرضي وترفضين مساعدتي.

في كل مقابلة أذهب إليه أشعر أنه يحاول أن يصنع مني مريضاً نفسياً، ويريد أن يدخل مرضاً لا يوجد داخلي.

أذكر أني صرخت في وجهه يوماً بسبب أسئلته الحمقاء، ربما نجح في أن يصنع مني مجنوناً، جعلني أحمق رغماً عني.

ما أتفه البقاء في حياة لا يشبهها إلا الموت!

ما أتفه أن تطلب البقاء وأنت ميت تسير على قدمين!

ما أصعب الفناء!

ما أسهل أن تتمنى الموت! وما أصعب أن تحصل عليه!

ما أسهل الأمنيات!

أحتاج طبيباً حقاً، لا أحتاج طبيباً يعالجني من مرض معين بل أحتاج أحداً يعيدك إلي، أو ينزعك مني إلى الأبد، الحياة، تلك الكلمة التي تعني لا تستحق اهتماما، كلنا سنموت يوماً وسنرتاح من المرض.

أنتظر موتي لكني هل سأنتظره جثة تنتظر خروج الروح لينتهي به المرض ميتاً.

أحتاج أن أفيق من غيبوبتي لأعيش حياة شبه عادية منتظراً موتاً لا فرار منه.

سيكون اليوم مختلفاً، لن أعيدك مرة أخرى في ذاكرتي، حتماً سأنساك

هذه المرة، أحسست كأني سأموت بعد أيام معدودة، بدأت أحسب الدقائق منذ تلك اللحظة، لن أترك دقيقة تفلت من الشِبَاك التي صنعتها لاصطياد الوقت.

باريس مكتظة بالعاشقين، شوارعها مزدحمة كعادتها، بطبيعتها باريس مدينة تعشق الحداثة الممتزجة بقليل من البساطة التي تضفي عليها روعة فتاة تستيقظ من سبات عميق، كسولة تغري العاشقين بشيء من جمالها، بتساقط قطرات المطر تغازلهم، وتغويهم بنعومة فتاة، تعشق التميز في كل شيء حتى إطلالاتها البنفسجية التي تغريهم بها.

جلست على مساحة تحت برج إيفل مليئة بالعاشقين من كل الأجناس والأقطار، ليست مدينة تتميز بالعنصرية، مسالمة بما يكفي لتجعل منا أحقر مما نبدو، استلقيت على النجيلة محاولاً نسيانك، تقدم نحوي شاب وفتاة شقراء يتحدثان الإنجليزية، كان الشاب يحمل كاميرا نيكون في يده اليسرى ويمسك يد حبيبته باليمنى، أعطاني الكاميرا وطلب أن التقط لهما صورة، التقطت الصورة ثم نظرت إليهما، لم أر في عينيك يوماً هذا الشيء الذي أراه في أعينهما، ربما لا تعلمين ما معنى الحب أو أننا لم نعشه أصلاً.

هل تعيشين حياتك منفردة حتى الآن..؟ هل تنتظرينني أم تزوجتِ شابًا عشتِ معه قصة حب أخرى؟ لم أتساءل عنك دائماً؟ اتركيني فقط للحظات، ربما هي آخر لحظات في حياتي، دعيني أعشها بحُرية كما أريد، لا تتملكيني هذه اللحظة، فقط هذه الساعات أو الدقائق أو حتى الثواني التي تبقت لي، فقط هذه اتركيني أعشها بسلام بدونك، حرريني فقط موعد الوداع الذي يمكن أن يحين في أي لحظة، أنتظره بشغف، لم أعد أرى معنى للحياة، أعطيت سبباً للحياة وانتهى فلم لا أنتهي أنا أيضاً، لم لا؟!

سأموت أخيراً شهيد حب، سأكون أول شهيد حب في التاريخ، ربما تكونين أنت المنتصرة وأنا الشهيد الوحيد والضحية أيضاً لكنك مجرمة، مجرمةٌ وقاتلة، وسيقتص الله لي منك يوما، ستموتين كما أموت تماماً.

انتهى عمري الافتراضي منذ أن انتهى سبب وجودي، أصبحت أعيش على الهامش، كلمة حُذِفَت من لغة البشرية ولغتك أنتِ تحديداً، حُذِفت ورُمِيت على هامش الأرشيف، ذاك الهامش الذي لا حاجة للرجوع إليه، مرمي على هامش مهجور وربما تعيشين أنتِ قصة جديدة سوف تضعينها على أرشيفك المليء بالضحايا، صرت

ملفاً تدفنه أغبرة الحسرة على أرشيفك.

جلست ثم نظرت إلى الساعة التي أرتديها على ساعدي، الساعة الثانية ظهراً، يمر الوقت بسرعة، يسرقنا ، يأخذ منا حياتنا ويذهب دون عودة، يتجاهل نداءنا، يعتقد أنا مذنبون متناسيا براءتنا التي دونها على ورقة وأعطانا إياها.

بقيت جالساً أقاوم شعوراً غريباً يدفعني نحو التدخين، حتى السيجارة تدمن أن تشكلك بدخانها أمامي تعذيباً، مثلك تماماً عندما تشدني نحوها بقوة ثم تمرضني فأكرهها رغم إدماني لها كما أدمنك تماماً، ربما تكونك أنتِ فأدمنها بقوة مع إذعاني بكرهها، يشبه إدماني لك تماماً، لا أزال أسعل كثيراً ويشتد مرضي يوماً بعد يوم، لم أكن لأنتهي منك حقاً فأنتِ مرض فجائي لم أفهم ماهيته، شيء عالق في حلقي يخنقني ولا يتركني أموت.

حملت جسدي المثقل بك محاولاً الوقوف على قدمي، دوار شديد يهز رأسي، لم تستطع قدماي الهزيلتان حمل جسدي الذي فقد توازنه، حاولت المشي فتهاويت قبل إتمام خطوة، نصف ميت بعينين لا تكادان تريان شيئا، التف الناس حولي، لم أسمع سوى أصواتهم المتداخلة بأُذُنٍ شبه حية، كأنهم يتساءلون عني، من هذا؟ ربما مجنون؟ لا .. لا ، ربما رجل يعمل هنا، هل هو ميت أم حي؟ قد يكون أغمي عليه بسبب مرض ما، ربما هو ميت، أصواتهم كأنهم أشباح يلتفون

حولي تعلو لحظة بعد لحظة، سمعت صوت أقدامهم على الأرض وهم يقتربون نحوي، مخيفة بقدر يكفي ليدوس قاع الهلع داخلي، حاولت النهوض ولكن لا أزال مقيداً بالوهن، كأن سلاسل تربط بين الأرض وقدمي فلا أستطيع الحركة من مكاني.

فجأة شعرت بأكف تلامس جسدي، كأنهم يحاولون حملني لإفساح الطريق، رفعوني كجثة، ألقوا بي على جانب الطريق، أفقت وأنا أسعل ورائحة الدخان تنطلق من جسدي لتنفجر على هواء المدينة فتلوثها بشدة، أصبحت أنا مخلوقاً ملوثًا لا يستحق العيش بين البشر.

أستنشقك لأطلقك سراباً أنهكني، فضحتني أمام الخلائق.

لدي الكثير لأكتب هذه المرة، لا أكتب كي أغتالك وإنما لأستمتع بلحظة هاربة تجمعني معك ورقاً.

أنا رجل ورقي، أعشقك على الورق، أتلذذ بكتابة أحرف اسمك على صفحات دفتري، أكتب لأتلذذ بك، حتى أشعر بتلك النشوة الغامرة التي أغرق فيها منذ بدايتي لتدوينك على دفتري، ألامس شفتيك دون أن ألامسهما، تطبق علي حرارة جسدك، تنزلق شفتاي بفسق نحو عنقك دون أن أقبله، تتنهدين بقوة فيغويني صوت المتعة الذي يخرج من جسدينا كأننا انخرطنا في لحظة شهية، ألامِس جسدك بأصابعي، لم أكن فاسقاً يوماً إلى هذا الحد كما فعلت اليوم.

تبتزني ابتسامتك غير المكتملة المليئة بالفجور فأضع قبلة غير مكتملة على شفتيك بقلم ربما أصبح أفسق مني، لم أثق حتى بقلمي فإن انقلب ضدي لن أكون سوى أعزل ينتظر جريمة في حقه، يرقص قلمي على الصفحات لتتبخر الحروف فتتحول إلى قطرات معلقة على سماء كتاب تُكَوِنَنِي نفسي فيصبح كتابي سماء حب غائمة ربما لَمْ يحن وقت هطولها، أعشقك اليوم حروفاً مدونة

على ورق تجسدني.

أحاول إغوائك ورقاً، أشعر بشهوة تقتلني، يرتعش جسدي بشهوة عندما تلامسه أحرف اسمك، أرغب أن تقودني الحروف إليك، تغريني حتى وأنت على أسطر ورق، يغريني اسمك الذي لا ينطق بلسان بشر.

أعيش متعة فردية، لمْ تعيشي معي تلك المتعة كأنثى حساسة بما يكفي لتجعلني أواصل.

عدت إلى زاوية بعيدة من هامشك لأجد فوضى لا تنتهي، ملفات ضحايا مبعثرة على أرجاء غرفة مهجورة، كل شيء كما تركته سابقاً، لم تهتمي للأمر، لا أحب زيارة تلك الغرفة، تذكرني بشيء يغافل نشوة الحروف، يعاودني بين الحين والآخر بشيء من صراخه المهلك، أكره مقاطعة ما يجري على هذه الصفحة تحديداً.

أتفقد ما بقي منك، هناك القليل من الورق، هل سيكون انتهاؤك حدثًا يغافل تلك المتعة أيضاً، هل ستكون تلك لحظة مغادرة بلا عوده؟ وحدك تعلمين ما أكتب، وحدك تستطيعين لمس صوت حنجرة رسالتي لتسمعي ما أريد قوله، أعيش حالة هستيرية عند كتابتك، يختلط الجسدان في نشوة عادة تكون بداية ثمالة مطلقة تخرجنا من كابوس الحب إلى حالة لذَّةٍ كلانا يتمنى ألا تنتهي عندما تندمج تأوهاتنا لتنعش لحظة ثملة، لا أكتبك

أدباً وإنما أكتبك تلذذاً، أنتشلك من ذاكرة النسيان لأقضي معك لحظة تطفو على بحر من الخيال، فقط تطفو على مخيلتي، كل تلك اللحظات لم تكن سوى لذة كتابة هستيرية.

أبحث عنك داخلي، رغم وجودك لم أستطع إيجادك، لا أعرف أين تكونين بالضبط، حتى في جسدي وجدتِ مكاناً غامضاً لا أعرفه، ربما صنعته لتتخذي منه مخبأ سريًّا لك داخلي، أتلوى من الألم الذي تسببينه داخلي، أشعر كأن أمعائي تتمزق وجسدي يحاول لفظك بعيداً، ومع نهاية واقعي وسقوطي في دائرة التخيلات التي حبستني رغم أني من صنعتها تظهرين بين الحين والآخر لتدوزني صوت مخيلتي وترحلي.

تلامسك أصابعي الضامرة في لحظة عابرة فأشعر برعشة خوف لم أشعر بها منك أبداً، جعلتني أموت وأنا واقف على قدميّ، تلطخت صفحات قصتنا بسواد مفجع، لا أستطيع أن أرى ما يحدث، أصبحت قصة تلوثها الحيل والأعذار الواهية ويلطخها النفاق.

انزويت أنا على الهامش، أفضل العيش هنا حيث لا غموض يدعو للاستغراب، فقط القليل من الوضوح لكن يغطيه استوحاش يجعله رماديا يظهر ضبابياً، لكني أفضل العيش هنا، يشعرني بالقليل من الأمان، لا أرى تلك الوجوه التي تخبئ خلفها

وحوشًا لا تعرف الرحمة.

أعيش سيناريو موت يحتمل المزيد من الضحايا، لعبة غريبة أنتِ القاتل المأجور فيها، تَتَّبِعين أسلوبًا غريبًا في إخفاء جريمتك، تجيدين إخفائها بطريقة بارعة.

لم تكوني تقتلين ضحاياك حتى يصبحوا جثثاً، بل تتركينهم بين الموت والحياة، ثم تضعينهم على ملف ميت تزورينهم بين الحين والآخر كفترات منظمة للتعذيب، لا يكادون يلفظون آخر أنفاسهم ويقتربون من الموت بشدة ثم ينغمسون في دوامة التعذيب مرة أخرى، تحنطينهم لتضعيهم على ركن مُهْمَل وأنا أحنط كلمة عابرة لأسجلها عنك.

أفضل الجلوس وحيداً على طرف المبنى الذي أسكن فيه، توفر لي حالة من التوحد التي أحتاجها دائماً، أحتاج إلى أن أجالسك وحيداً، أخبئ انتقامي منك عن أعين البشر، يعتصر الشوق قلبي فيسيل دم غامق اللون يتخثر على أوردتي وشراييني، دم فاسد يجمدني في مكاني، يتمكن مني بسهولة، أشعر بشيء غريب يسري في جسدي، ليس دماً، رفعت يدي لأرى ما يجري، أصبحت شراييني بارزة جداً، وضعت أصبعي لأجِس نبض الدم، شيء ثقيل يمر عبر الشرايين، وفجأة أحسست بألم في رأسي، ألم شديد، شيء ما يضربني على رأسي بقوة ويزداد تدريجياً، أشعر بتدفق ذاك الشيء عبر شرايين رأسي، برزت بشدة ولا يزال الألم يزداد، يكاد رأسي ينفجر من الألم، حاولت النهوض

من الكرسي فلم أحس بقدمي، كالمخدرتين تماماً لا أستطيع تحريكهما، وفجأة تسرب ذاك الألم عبر شراييني إلى كامل أجزاء جسمي، تجمدت مكاني كالمحنط، شيء ما لف عنقي بقوة كأنه سيكسره ثم أعاده مرة أخرى، ثم ثوانٍ قليلة ودبَّت الحياة على قدمي من جديد، تَلَبَّس الألم جسدي كاملاً، هل هي سكرات الموت التي أسمع عنها؟! أصبح كل شيء يدور، كل شيء حتى أنا، وتزداد السرعة رويداً رويداً حتى أصبحت جنونية، صرخت بصوت عالٍ وفجأة توقف كل شيء، شعرت بدوار شديد والألم يسكنني، وفجأة شيء ما يقتحمني بسرعة فأغمي علي لحظياً، وحين أفقت وجدت كل شيء اختفى كأني لم أكن في نفس المكان، نظرت إلى نفسي في المرآة، أصبح شعر رأسي أبيض، وعيناي مرهقة جداً كأني لم أنم منذ زمن بعيد، حتى شاربي ولحيتي تحولتا للأبيض، هل اختزلت تلك اللحظة مستقبلي؟ ماذا حدث معي الآن؟ هل هذه حقيقة؟ نظرت إلى التاريخ في هاتفي، لم يكن هناك شيء غريب، كان نفس التاريخ، يبدو أن حياتي هي التي تسير بصورة غير منتظمة، كأن ما حدث يختزل مستقبلي الذي لن يكون فيه شيء سوى تكرارات لِمَا جرى.

فجأة شعرت أني غير قادرٍ على تحريك قدمي، استلقيت على فراشي، أصبح الألم على رأسي يزداد شيئاً فشيئاً مرة أخرى ولكن هذه المرة الضربة مؤلمة أكثر من السابقة، لم أعد أشعر بشيء سوى ذاك الألم على

رأسي، أمسكت رأسي بكفيّ وضغطت محاولاً تلافي الألم فلم أستطع، سحبت جسدي للوراء قليلاً، قدماي تبدوان كمشلولتين، كأنها النهاية لكنها مؤلمة ليست كما توقعت، مؤكد الموت أفضل من هذا فالجثث لا تشعر بشيء.

ربما تنوين أن أكون أنا أول الملفات التي تنحينها عن الهامش، هل تنوين ذلك حقاً؟!

شعرت بألم داخلي يلامس قلبي كصدمة كهربائية، بدأت أسعل وأنا أضع يدي على فمي، شعرت بشيء دافئ يسيل على أصابع يدي، كان دماً كأنه تخثر داخل جسدي منذ زمن بعيد، لم يكن دماً عاديا بل أسود ثقيلا لا يشبه الدم، بدا لي كقطران.

تناولت الكثير من مسكنات الألم دون جدوى، كأنك توقدين النار داخلي فيتناثر الدخان ليتعلق على دمي فيصبح أسود، تحاولين تعذيبي بشتى الطرق.

نزلت على الأرض أحاول المشي بخطوات متراجعة، تبتلعني بشراهة كلما تقدمت خطوة، أسير نحو نهايتي التي بدت لي شيئا مؤلما لا فرار منه، أضع خطواتي على الأرض وسط هدوء مخيف فيرتد صدى وقعها ليخيفني أكثر، وفجأة اختنقت من رائحة الدخان، اقتربت أكثر لأرى ماذا يجري وأنا أبعد الدخان عن وجهي، تسمرت مكاني عندما رأيتك، لم أشعر بشيء، لم يخنقني الدخان، كنتِ تقومين بطقوس

إحراق الضحايا والجثث الميتة، هل دوري التالي؟ لم أتوقع يوماً أن نهايتي ستكون على يدك.

تخدر جسدي بأكمله، فقط أنتظر نهايتي، لكنك تتجاهلينني، لم يحن دوري بعد، تتجاهلينني كأني غير موجود، أحترق بشدة، أفضل أن تحرقيني على هذا المرض الذي أعيشه وأدمنه.

كنت أنا الأخير أو ربما أنا ملف منسي على ركن من أركانك المهجورة، أخشى أنني منسي.

لا يزال ذاك الشيء يتدفق داخل شراييني، أصبحت أثقل كلما تدفق ذاك الشيء عبر شراييني، ويتباطأ نبضي رويداً رويداً حتى يوشك أن يتوقف ويثقل مع مرور الدقائق كأنه شخص اقتحم جسدي وأصبح يتجول عبر شراييني، يَتَلَبَّس جلدي جسدًا آخر، كأني تحولت لشيء آخر، أو ربما إلى شخص غيري، كأن جسدًا آخر اندغم بجسدي فأصبحنا شخصين في هيكل نحيف لا يكاد يحتملني أنا وحدي، ضاق بي الجسد، أحاول إفلات روحي من جثة مريضة، لكني أصبحت عالقاً.

تمددت على هامش الظل بجسدٍ مريض على الأرض أحاول إخراج ذاك الثقل مني، مريض أنا وخائر، سعلت فسال من فمي دم ثقيل، أفكر ما هذه الحالة التي أنا فيها، هل غرقت في حالة انفصام لا نهاية لها معك، ربما اقتربت نهايتي التي أنتظرها منذ عامين، منذ عامين وأنا

أعيش مرضًا مزمنًا هو أنتِ، بدت حركة عقارب الساعة منذ عامين ولم يتغير شيء حتى الآن، لا أزال أسمع فقط صوت عقارب الساعة التي لا تزال ساكنة منذ أن بدأت أسمع دقاتها، لم تكن تلك الدقات حساباً للثواني بل إنذاراً للرحيل، لا يزال كل شيء كما هو سوى أثر سُمَّكِ الذي يحاول انتزاع روحي، أموت موتاً بطيئاً كل يوم، يتباطأ كل يوم أكثر، كأنه يمدد فترة عذابي.

ألملم رفاتي الذي لا يزال معلقاً على حبل المشنقة منذ أن حكمتِ علي أنتِ بالإعدام محاولاً الهرب من جثة لم تكن لي، حتى الجثث لم تكوني رحيمة معها بما يكفي، معلقاً على الحبل حتى أصبحت رفاتاً ولم تلتفتي إلي قليلاً، علقتِني على حبل المشنقة وتركتِني مهجوراً على هاوية الموت، أبعد فقط بضع سنتيمترات على حافة النهاية.

تسارعت دقات قلبي فجأة حتى أصابه الفتور، شيء ما بارد وموجع تسرب داخلي، تحسست الفراش الذي أرقد عليه، بارد جداً، تسرب ذاك الشيء عبري إلى الفراش، يقولون إنه عند الموت يبرد الجسم، هل حان موعدي لأرحل، رقدت أنتظر نهايتي نصف مشلول لا أقوى على تحريك أصبع.

تباطأت دقات قلبي رويداً رويداً حتى قارب التوقف، توقفت أنفاسي، أصبحت أنتزعها من بين رئتي بصعوبة بالغة، لا تكاد تصل فتحات أنفي حتى ترجع إليهما، أنتشلها من بين أضلعي بقوة.

تجسد المرض داخلي، تمكن مني، جعل مني كهفاً يقبع عليه كلما طرده أحدهم، يبدو أنه تبقى لي أيام معدودة على هذه الحياة.

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة على الغرفة، لا تزال عقاربها عالقة في مكانها، ولا أزال أسمع دقات الثواني التي لم تكن موجودة، تلاشى الوقت في لحظة ساكنة، تبقى فقط صوت أجراس لا أعرف لها معنى، يزعجني أنين الثواني التي لم تولد بعد، تقبع في رحم ساعة تأبى الخروج إلى دنيا أعوام محيت من ذاكرة التاريخ ولم أر بعد ما فيها، تتهرب مني، تختفي خلف جدار من الأقنعة الصوتية لأنشغل بتواجدها جزئياً.

أنظر إلى الساعة كلما سمعت عدة دقات ربما تحركت عقارب الساعة عن غفلة مني، لكن مهلاً، ماذا سيحدث إن تحركت؟ هل سَيَمُر عامان في لحظة تتدفق دفعة واحدة في تلك المساحة الضيقة بين الثواني؟!

بدت عقارب الساعة تختفي كأنها تتآكل من القدم حتى أصبحت باهتة لا أراها بوضوح ولكن لا يزال صوتها كما هو لم يتغير، لم أعد أرى سوى دائرة مرقمة، شيء مبهم معلق على الحائط، أعيش الآن ما بعد العمر الافتراضي مدة مجهولة، مَحَوتُ الوقت من ذاكرتي.

أصبح الجميع يدورون حول محور واحد يزدحمون على أرقام مبهمة ويختصرون حياتهم في شيء مدور، ربما أصبحت أرى ذاك الزحام بوضوح لأني أخرج من بينهم.

أرقد داخل غرفتي أنصت لتلك الإنذارات المتتالية كقنبلة موقوتة

ربما تنفجر في أي لحظة، وفجأة توقف كل شيء وعَمَّ صمت مطبق، نهضت من سريري أبحث بقدمي بحركة دائرية غير منتظمة عن نعلي، ارتديته ثم توجهت بخطوات هادئة نحو النافذة، صمت غريب نزل على المدينة، لا أرى شيئا يتحرك، لا شيء سواي، أسمع صدى كل حركة أقوم بها، اختفى السكان، كأنما نزل مطر فذابوا وأصبحوا مياه.

صمت قاتل نزل فجأة، حتى تلك القنبلة الموقوتة توقفت، شعرت برتابة تأكلني، لم توقفت تلك القنبلة؟ على الأقل لم أكن أشعر بهذا لوجود شيء حولي حتى وإن كانت تلك القنبلة التي ستسحقني أشلاء، أفضل من الموت على تآكل جسدي من الملل.

وسط زحام الصمت المحيط بي سمعت صوت رنين، كان ذاك هاتفي، من المتصل في هذه اللحظة يا ترى؟! مددت يدي المترنحة نحو الهاتف، صمت الجرس فصمتت حركة يدي، انقطع الاتصال فسقطت يدي معلقة بيني والأرض.

لا أظن أنه كان اتصالاً، كل شيء يتوعدني بالنهاية التي ظهرت إرهاصاتها ولا تزال هي عالقة على ذاكرة يوم لم يكتب بعد، أخاف سماع تلك الإنذارات، لم أعد أحسب تلك الأرقام التي يقحمها الناس فيهم، أكره الدوران حول ذاك المحور، أفضل أن أنزوي على فراغ منتصف تلك الأرقام يتوقف حساب الوقت فيه، يتجاوزني الوقت ليتركني على فناء أسود خالٍ من الأرقام.

نزلت من غرفتي مترنحاً، أسمع وقع أقدامي على الأرض كأن المدينة تبكّمت، لم أسمع صوت سوى صدى وقع قدمي الذي يصطدم بالحائط فيتشتت على فراغ مليء بالصمت، لم تكن كعادتها المدينة تتعرى أمام الجميع.

تبعثرت على أركان منزلي أبحث عن قَدَر رحيم يجمعني بك، عدت إلى غرفتي أسحب قدميّ بقوة تنهكني أكثر من المشي، جلست على الطاولة أنظر إلى قلم حبر وورقة فارغة أمامي، انتابتني رغبة في تدوين نفسي قبل انتهاء الفرصة، مددت يدي المحمومة ممسكاً القلم ، لا أعلم ما هذه الرغبة التي انتابتني فجأة، أعادتني تلك السطور إليك رغم الفترة التي بعدتها عنك، عامان من الجنون والمرض لا يكفيان لأعود لرشدي، وأصحو من تلك الغفوة التي طالت.

أعيش بروفة الموت، أقترب من الموت حتى تتبقى ملليميترات من لفظ آخر أنفاسي فتُنْفخ في الروح من جديد، ورغم هذا لم أنجح في البروفة، فأجْبَرُ على تكرارها عدة مرات؛ مرة تلو الأخرى، ولا أجيد مسلسل الموت بإتقان ، أو أنه عقاب على فشلي الأول.

لا يزال الصمت يملأ كل شيء حتى فراغ منسي بين الأحلام والحقائق لم ينسه، أمسكت قلمي في عتمة من اللغة أستجمع أشلاء الكلمات المبعثرة، أرتقها لأكون نفسي حروفاً ربما ستقرئينها أو ربما هي الأخيرة، بدأت الكتابة في صمت عميق حتى أنا لم أستطع التكلم

فيه، وصوت القلم على الورقة يبدو مرعباً في هذه الأثناء.

اقترب الموت مني لدرجة أني أستطيع لمسه بيدي التي ترتجف من الفتور، كلنا ننتظر الموت ولكن أنا ميت منذ خروجي من رحم أمي، ماذا أنتظر حتى الآن؟ أنتِ من سجل قدري، وأنتِ من سيمحوني من قدرٍ ليس موجودًا، ربما كنت فائضاً لم يسجل لي قدر، فات الأوان حتى قبل أن أكمل كتابة نفسي، شعرت بشيء غريب يحرك جسدي لم أكن أنا المتحكم فيه.

بين مرض غريب وحياة لا تستحق العيش أسمع رنين هاتفي مرة أخرى، أمسكته بأصابعي المتهالكة، كنت أنت المتصلة، فتحت الهاتف، لم أكن أستطيع الكلام فقط كنت أستمع إليك وأنت أيضا لا تتكلمين، هل كانت تلك المكالمة لأجل أن تعرفي إن كنت حياً أم لا؟

تقتلينني على الورق، حتى الورق تقتلينني فيه كأني شخص كامل على ورق، كان يوفر لي حرية ربما زائفة حتى عدتِ لتغتالي حريتي على السطور، تشعرينني بسلطانك رغم أني أكتبك حداداً كامل السواد، لا يمكنني مقاومة ذاك الإحساس العميق الذي زرعتِه داخلي كأنك تسكنينني دون علمي.

ربما هذه الطاقة التي تدفقت هي عاصفة تسبق هدوءًا نهائيًّا، ربما تعطيني فرصة عيش لحظات أخرى.

عادت دقات عقارب الساعة مرة أخرى، لكن بدا صوتها يختفي شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لا أسمعه جيداً، فقط صوت خفيف متثاقل وينخفض كلما مرت ثانية حتى اختفى، توقفت حياتي هنا، حتى التاريخ ترك ما بيده وانصب كل تركيزه نحوي، توقفت عقارب ساعاته، قنابله الموقوتة تلك توقفت، كمصورٍ يتربص باللقطات المتميزة ينتظر حتفي، هل ستكون نهايتي حدثًا مميزًا إلى هذا الحد؟

توقف التاريخ لفترة طويلة جداً، مل الانتظار وصرخ بصوتٍ عالٍ: إما أن تموت وأدونك تخليداً أو تحيا وأكون أنا الخاسر في النهاية، لو كان يمتلك القليل من الصبر لشهد اللقطة التي ينتظرها.

كنتِ في نظري ملاكا تائها يبحث عن شيء ما وجده داخلي، لم أكن أعلم أنك ترتكبين كل هذه الذنوب، رميتِ تلك العهود الرحيمة على زاوية من زواياك المنسية رماداً لا تريدينه مرة أخرى، هل خنتِ قدسية تلك العهود أم أنك لم تكوني تقدسينها من البداية؟!

تناثرت على مكتبي أبحث عن تلك العهود التي وضعتها على إحدى الزوايا هنا محاولاً إعادة الروح إلى حياتي التي أصبحت فتاتاً، لم أجد سوى رماد عالق على الحائط وبعض ذرات الهواء، هل قمتِ بإحراقها

هي أيضاً؟!

جلست على تلك الزاوية أرمم نفسي التي لم أكن أمتلكها، أحاول ترميمها في كل مرة حتى أوشك على النهاية فتنتشر على الأرض من جديد، أحاول وأحاول دون جدوى، أتعبتني المحاولة في كل مرة.

أبحث بين ذرات الرماد على الحائط والأرض عن حرف واحد من تلك العهود يعيد الروح لجسدي الميت، لم تتركي منها شيئا، لا أعرف لم أقدسها لهذه الدرجة رغم أننا من صنعناها وأنتِ خنتها قبلي، ربما أصبح تقديسها شيئا مسلَّما به داخلي، أو ربما هي روحي التي أفتقدها منذ زمن.

لم أتساءل كثيراً هذه المرة، توجهت نحو الخزانة، فتحتها وأخرجت مسدساً من عيار 9 مللي ورصاصتين، أخرجت منديلاً من جيبي وأمسكت به المسدس محاولاً إخفاء جريمة ربما سأرتكبها قريباً، وضعت المسدس على الطاولة، والرصاصتان بجانبه على قطعة قماش، وبجانبهما قلم حبر وورقة بيضاء، جلست على الكرسي أنظر للمسدس، الشيء الوحيد الذي لا يجيد الكذب في تلك اللحظة، صديق وفي وعدو لدود، مليء بالتناقض، أمسكت رصاصة واحدة، هي حبيبته التي يعشقها بجنون ولا تخونه أبداً، هذا سيكون سلاح جريمتي الأخيرة والتي لن يحاسبني عليها القانون؛ فالموتى لا يحاسبون، أو ربما يحاسبون ولكن بطريقة أرحم من الأحياء.

سحبت قلمي الذي ربما تكون آخر مرة أمسكه، حاولت تدوين نفسي تلك اللحظة فتسمرت يدي على بداية الصفحة، لم أستطع تدوين أكثر من حرف ولم يكن متناسقاً رغم أنه واحد.

نهضت من الكرسي بعد قليل من التفكير أبحث عن سبب أعيش لأجله، سبب مقنع يولد رغبة العيش داخلي بتلقائيته.

توجهت نحو برج إيفل حيث يتجمع العاشقون، يلقون همومهم كأنه ملاك يأخذ من البشر آلامهم ويعطيهم السعادة وأنه تشيد من تلك الأشياء التي يلقونها عليه، لا أزال أذكر تلك اللحظة عندما أمسكت رأسك ضممته بين كفي وقبلتك، تركوا كل ما بأيديهم، توجهت أنظارهم نحونا، صفقوا لنا بعد انتهاء تلك القبلة كالفائزين في مسابقة، احمرت خداك خجلاً وشعرت أنا بالنصر.

جلس على الأرض تحت البرج، شعرت بشيء من الألفة كأن هذا المشهد معاد، أود الانفصام عن الحياة وعن كل الأشياء المعتادة، أحب الانعزال على ركن مهجور منها لا يدركني فيه أحد، ولا أرى فيه سوى نفسي، أكره ضجة البشر التي يصنعونها من كل شيء، لم يكن هناك أحد، كأني أمتلك كل الكون للحظة، وهذا ما أريده تماماً، نظرت إلى النجوم التي تزحلقت عبر لحظة شهية لتقع في مشهد غير مألوف على عيني تلمع بطريقة غير معتادة، كنتِ تقولين لي دائماً إن من أراد الثريا سينالها بالاجتهاد، هل غايتي أبعد من الثريا؟!

بدأت أحسب الدقائق الأخيرة من عمري، تلك اللحظة المنتظرة فقط في جزء من الثانية سينتهي كل شيء، ستكون بداية ممتلئة بالضجة رغم أني أكرهها، لكن ستنتهي بسباتٍ أبدي، ولن أسمع شيئا مرة أخرى، سيحدث انفجار وينتهي بهدوء كامل، سترتاح مفاصلي من الحركة، سأعزف أغنية الموت على أطراف زناد المسدس، سأنتهي بحركة أصبع، كم أنتظر هذه اللحظة، لن أكون المتهم بل فوهة على ظهر المسدس طريقاً لجريمة، أنا الجاني والمجني عليه في جريمة واحدة.

سأكتب حدادي سواداً ربما لن يفهمه أحد غيري، ثم أموت بهدوء دون أن يلتفت التاريخ ليدون حدث موتي الذي سيتم في كتمانٍ تام، لن يعرف عن جريمتي أحد غير فراغ غرفتي التي ستظل مأوى لغبار الجريمة.

بقيت مستلقياً لزمن لا أعرفه، رفعت جسدي من الأرض لأجد كل شيء عاد إلى طبيعته وأصبح العالم ضجة قاتلة، اكتظت المدينة بالمارة فباتت عاجزة عن الحركة، كسيحة تماماً، تمارس الفسق كل يومٍ مع العاشقين، تتجعد ببطء وتعاني من فتورٍ محدق.

حملت أطرافي وتوجهت نحو منزلي، دخلت غرفتي، لا يزال المسدس يرقد على جانبه الأيسر، يرقد ببرود تام بعمق فوهته القاتل ينتظر ضغطة زناد، بارد جداً كأنه مثلّج ينتظر جريمة ليتحرر من السجن.

ذهبت للطبيب لأعرف مصدر هذا الوجع، بعد العديد من

الفحوصات اكتشفت أني مريضٌ بالسرطان بسبب المخدرات، مت أنا في تلك اللحظة ميتة مؤقتة، استيقظت على شيء من الخمول، أرقد على فراشٍ أبيض ربما يكون فراش الموت، أعرف أن السرطان مرضٌ لا يعالج، تلبسني يأس تسرب إلى كل أعضائي، أصبحت يأسًا يغطيه جلد بشر، تيقنت أنها النهاية هذه المرة، لم تكن بروفة الموت هذه المرة بل بدأ التمثيل على مسرح الحقيقة، وربما يكون التصوير هذه اللحظات بكاميرا النهاية ويبث الآن على الهواء مباشرة، نهايتي بدأت الآن، بدأت النهاية التي بدايتها تعني نهايتي.

شعرت أن الزمن يتسارع ودقات قلبي أصابها الوهن، عرفت أن الموت محدقٌ بي، لم أستطع العدول عن المخدرات حتى وأنا على فراش الموت، حملت هاتفي بيدٍ نصف مخدرة وبدأت أبحث عن رقم هاتفك، اتصلت بك وقلت لك بصوتٍ متقطع: أنا على فراش الموت.

أغلقت هاتفي وأخرجت سيجارتي وبدأت أنفث الدخان وأنا أختنق، اتصلت بي مرة أخرى لكني لم أجب، ألححتِ في الاتصال وأنا ألح أني لن أرد، ضحكت ولكن بمرارة كأني أبكي.

فتحت صفحتي على «فيس بوك» وسجلت منشوراً جديداً «التقط نفسك من بين ركام الحياة إلى نهايةٍ مريحة»، ثم أغلقت صفحتي وأغلقت هاتفي ثم رقدت مرة أخرى، انتاب الهاتف هدوء لفترةٍ وجيزة ثم سمعت صوت رنينه مرة أخرى، فتحت الخط، كنتِ أنتِ

المتصلة، سألتني بصوتٍ حزين: ماذا بك؟

مريض بالسرطان بسبب المخدرات.

لم أستطع التكلم بعدها، أحسب آخر الكلمات وأصدقها، قاطع هدوئي حضورك لمنزلي، شيء غريب انتابني عندما رأيتك تقفين أمام باب منزلي، لا تزالين كما أنت جميلة خفيفة الدم.

الموت يسكن بين ضلوعي ولم يأخذ روحي بعد، ربما لأني لم أعش موتي حقيقة بل عشته فرضية يصعب تصديقها، أعيش موتاً حقيقياً يسكن جسدي على شكل قلب ينبض بالموت.

انتشر خبر موتي قبل أن يحدث حقيقة، ملل مميت أصابني، نظرت إلى وجهك الممتقع وسألتك: ما الأمر؟ لم أنتِ قلقة؟ سأموت، كلنا سنموت، لن يخلد أحد، ربما انتهى مشواري على هذا الطريق الطويل، حانت محطتي لأنزل من قطار الزمن.

لم تنطقي بكلمة لكن بدوتِ قلقة جداً على شيء ما ربما أنا، أو ربما لا، تسرب الملل إلى هاتفي، كان الهدوء يملأ زواياه، هدوء ينذر بخطر محدق.

سمعت صوت منبه، كان هاتفي، فتحت الهاتف وفتحت «فيس بوك» لأجد تعليقاً أول معارض، لم أهتم للأمر، وضعت الهاتف على الطاولة وأغلقت عيني أستمتع بهدوء ربما تعقبه عاصفة لا نهاية لها، أعيش هدوءًا تعقبه نهاية حتمية.

رميت تقرير الطبيب على سلة القمامة، لا أحتاج إلى تجسيد حالتي المرضية على ورقة بحبر ينتهك حقوق إنسان مثلي ليدونه على ورقة صغيرة تحمل مرضاً ليس لي وجود في ضحاياه، لحظات جنونية تشتملني داخل حياة تبقى لي القليل منها.

فتحت الهاتف مرة أخرى، الكثير من التعليقات، شجارات دائرة وآراء تطرح، مؤيدون ومعارضون وأشياء أخرى لم أفهمها، العالم كله ينتظر حدث يدونه على مجلة التاريخ، تسرب الملل إلى تعليقاتهم، أصبح كل حرف فيها ممتلئا بالملل، كلهم يملّون في النهاية، حتى إذا مت لن يهتموا، يحزنون قليلاً ثم سيعودون لروتين حياتهم اليومي مرة أخرى.

نزلت متجهاً نحو مقهى كنا نرتاده معاً، وجلست على الطاولة التي كنا نجلس عليها دائماً، سحبتني الذاكرة إلى حقبة من الذكريات التي قضيناها معاً، تأملت شروق الشمس عبر نافذة زجاجية كنت تحبين أن تراقبيه منها دائماً كطفل ينتظر أمه القادمة من بعيد.

قاطع شرودي صوت نادلة المقهى تسألني: ما طلبك؟

أريد كوباً من القهوة فقط «أجبتها بصوتٍ شارد».

في لحظات انتظاري باغتت شرودي قطرات المطر التي تضرب الزجاج بعنف، توجهت نحو النافذة أتأمل قطرات الماء التي تنطلق بحرية كاملة لكنها تفقدها عادة حين تضرب مكان سقوطها فتتحطم وتتحول من كرة ماء إلى دمعة حزينة، أو تتقطع أشلاء لتتحول إلى رذاذ يستمتع به البشر ولا يدركون أن قطرة ماء فقدت حياتها لتكون هذا الجمال المفرط، ولكن رغم جمالها فموتها شيء مسلَّمٌ به في طبيعة الكون، تأملتها بهدوء كأني أرى نفسي التي تكورت لتتجسد على قطرة ماء، أوشكت على الاصطدام بالنهاية التي ستجعلني غبار جريمة فقط مقيدًا لا يجد حريته كما قطرة الماء.

فتحت النافذة، اعترض الكثير من الزبائن لكني لم أبالِ، وقفت

استمتع بقطرات المطر المتساقطة على وجهي، لم يكونوا يعلمون مدى جمال المطر يوماً، أصبح وجهي مبتلاً بالماء لكني لم أهتم، واقفاً لمدة حتى غافل متعتي صوت النادلة مرة أخرى تقول: قهوتك سيدي، لم تكن القهوة أجمل من المتعة التي غرقت فيها.

أغلقت النافذة وعدت للطاولة مرة أخرى، لم أكن أفضل القهوة على المطر لكني شربتها، شربتها كما كنت تحبينها أنت ليس كما أطلبها أنا.

كانت النادلة تتحدث معي كثيراً وكنت أنا أجيبها دون أن ألحظ ذلك، كانت القهوة كمورفين يخدرني وأجد نفسي فجأة أتحدث دون أن أشعر، لم أكن أحب التحدث مع الفتيات غيرك، لكن ذاك الفراغ الذي يملأني هو ما يجعلني أنجذب لكل شيء ولكل فتاة تحديداً، أنتظر عدة أيام فقط لأنتحر! نطقت بها ثانية بتعجب كبير: سأنتحر!

الأمر يشملني أنا! أنا فقط والعالم كله ينظر عبر أعين مستطيلة ماذا سيحدث، الكل ينتظر حدثًا واحدًا، والكل يتجول عبر أقدام إلكترونية، يمدون يداً بإبهام مرفوع لا أفهم ما يقصدون، هل هو إعجاب أم تعجب أم أنها اللامبالاة التي يعانون، أو ربما لا شيء سوى التبعية التي تصيبهم بسبب أي شيء حتى ذاك اللا شيء الذي لا يعرفون ماهيته كوباء انتشر بينهم، يستيقظون كل صباحٍ ليضعوا واحداً ويرحلوا كمن يتفقد طفله الصغير.

خرجت من المقهى، المطر يهطل بقوة، تبللت من رأسي حتى أخمص

قدمي، كأنه يغسل الخطايا العالقة علي حتى لا أموت متسخاً بتراب الخطيئة، حتى المطر ينتظر تلك اللحظة، لم أهتم للأمر كثيراً، بالنسبة لي هو شيء لا بد منه، أحاول اختزال سنين في لحظات بديلا للضائع من حياتي السابقة، ربما لن أنجح لكن لم يعد الوقت يكفي لإقحام الاحتمالات.

أصبح المطر يتناقص تدريجياً حتى كاد أن يتوقف، بقيت كذلك لفترة تقارب الساعة أو أكثر، أصبح قطرات رذاذ تتساقط على وجهي وأنا مستلقٍ على الأرض، لم يكن يمتلك نفس لطف الرذاذ، يحمل الاسم فقط ولكن لا يحمل نفس الصفات، لم يكن الرذاذ عنيفاً بهذه الطريقة يوماً.

ابتلت ملابسي حتى اندمجت مع جلدي فأصبحت جزءًا مني، أكره هذا لكن لم أفكر في شيء سوى ساعة الصفر التي دنت مني لدرجة أنها أصبحت تلامسني، لم يبق شيء سوى لحظات انتظار، جلست أستمتع بموسيقى حنجرة الماء التي يتدفق صوتها بشكلٍ متناغم ليصنع موسيقى لا أنتهي منها.

لا أعرف ما الذي ينتظرني على أرشيف المستقبل الذي ربما مر دون علمي كأنه تجاوزني، أخرجت رسائلك المخبوءة في شيء ما داخلي ربما للمرة الأخيرة، لا أزال أذكرها حرفاً تلو الآخر، لم أنس شيئاً منها، تشعرني بوجودي في حياتك، نعم لم تكن سوى تخيلات لكنها تمتلك

نكهة خاصة داخل ركن بعيدٍ من الذاكرة، ترى هل أنبش قبر مأساة لم تطأني بعد أم أنها ضحكة تعلو كلما نبشت قبرها أكثر.

أنا نصف روح على جسدٍ خاوٍ تماماً، خاو من كل شيء إلا منك، أريد أن أصرخ بصوتٍ صاخب: يكفي أرجوك، لم أعد أحتمل لعبتك وتلك الافتراضات التي أعيشها ولا أعلم عن صحتها، أود الانسحاب من لعبة لا أعلم كيف يكون فيها الربح والخسارة ومجهولة القوانين، تعبت يا نوران، حقاً تعبت، ليس منك فقط بل حتى ذاك الغموض الذي ترتدينه، لم أدخلت نفسي في متاهة مثلك؟ همست وأنا متورط وسط لعبتك التي لا أدري لها نهاية؛ أود الانتهاء من هذا حقاً، أكره أن أخسر في لعبة لم تبدأ بعد ولا أكتشف قوانينها حتى توشك نهايتها، اعذريني فقط هذه المرة.

لِمَ عدتِ ثانية بعد أن حانت النهاية؟ لم تظهرين في أوقات غير مناسبة دائماً لقلب الصفحة؟ أصبحت هذه الصفحة مثقلة جداً بالتفاصيل، لن أستطيع قلبها بروحي الهالكة التي تبحث عن منفذ للهروب من هذا الكتاب، أبحث عن مخرجٍ بين تلك التفاصيل المتزاحمة على صفحة واحدة.

حتى الآن لا أعلم كيف تمكنت امرأة من ورق أن تستفزني بهذه الطريقة، جعلتني أتجول بين تلك التفاصيل، أبحث عني في ركام من حروف، رغم أني من دونت تلك الحروف وأعلم تماماً ما فيها،

أعيش فترة حداد غامقة اللون، استطعتِ قتلي على ورق ولم تدعي أثراً واضحاً للجريمة، أعيشك امرأة ورقية أحببتها افتراضا ولم تكن واقعاً، ورغم هذا كنتِ مختلفة عن أقرانك من أبطال الروايات، لأول مرة أعرف أنه بإمكان امرأة على ورق اغتيال قلم كتبها.

ترغمينني على قتل حواء داخلي لأصدق أنه لا حواء غيرك موجودة، تحاولين تَمَلُّكِي بكل ما أمكن، كيف تمكنتِ من دمج حبرك مع دمي حتى أصبح شيئا غامضًا يجري داخلي.

تغيرت الأشياء، أصبحت غريقاً في رواية وأنت مجرمة هاربة، ليس خوفاً وإنما تحاولين إخفاء جثتي التي تعلقت بك منذ أن قتلتِها، تحاولين إخفائي على مخبأ الأشباح المظلم، كانت ميتة جزئياً تتعذب أكثر من الموت نفسه.

دخلت غرفتي منهكاً، لا يزال كل شيء كما هو، حتى المسدس لا يزال هامداً على جانبه الأيسر ينتظرني للوفاء بالعهد الذي قطعته معه، والرصاصتان على قطعة القماش مع القليل من ذرات التراب التي ستكون الشاهد الوحيد على جريمتي، نظرت إلى الجانب الأيمن من الطاولة، لا يزال القلم في مكانه ولكن بدا قديماً مع ذاك الغبار الذي غطاه بالكامل، أمسكته برفق بسبابتي وإبهامي ثم رفعته، كان مكانه خالياً من التراب، كأنه يحاول رسم الملاك الصغير على الرمال، ابتسمت ابتسامة غافلة ثم تجولت بنظري على الطاولة أبحث عن

الورقة التي وضعتها، رأيت طرفها وسط كومة من ذرات التراب، أمسكتها ورفعتها ببطء شديد، أصبحت ثيباً، لن أجيد الكتابة عليها، رميتها في السلة، ربما لن أحتاج ورقاً بعد الآن، سيحدث كل شيء أمامي.

جلست على الكرسي وفتحت هاتفي، لا يزال الجميع يتبادلون التعليقات حول محورٍ واحد، ينتظرون خبر موتي، لكن سيحدث ذلك على غفلة منهم رغم أنهم يتربصون به بشدة، لن يعلم أحد بتفاصيل الحدث كما يتوقعون، سأغافلهم لأنفذ جريمة مخفية أعلنتها أمام العالم دون أن تدون على الأرشيف، لن يكون ذلك غريباً كما يدعون، ينتظرون حدثاً مأساويا، يرون أنها تسلية، يحبون المأساة بشدة ولن يفعلوا شيئا سوى أنهم سيعودون إلى أعمالهم، ويجعلون المأساة حديثهم حتى تصبح حديث الشارع مأساة حدثت أو ربما ستحدث حتى تتعفن في أفواههم.

حملت المسدس، رفعته على يدي وضغطت على الزناد دون أن أضع رصاصة عليه، لم يكن بتلك القوة كأنه مرض من الانتظار.

أعيش فترة حدادٍ قصيرة لكني أراها أطول من كل السنوات السابقة، تبقت ثلاثة أيام لانتهاء حدادي على نفسي وحدوث الجرم الذي سينتهي بي، يتباطأ الزمن كلما اقتربت النهاية.

اتصلت بي في جذوة من الليل، تحدثنا كثيراً، سألتِني: هل قررت

هذا؟

- نعم ستكون النهاية وأنا بطل مسلسل الموت.
- لن تتنازل عن هذا لأجلي؟
- لستِ سبباً مقنعاً يجعلني أعيش، لم أعد أرى شيئا سوى النهاية.
- إذن سنفعلها معاً.
- متأكدة؟ سينتهي عمر الانتظار وستتراجعين عن قرارك.
- لن أتراجع، سنفعلها معاً.

مات كل شيء داخلي، أشعر بالنهاية تقترب أكثر فأكثر، تلامسني بيديها الهالكتين، تحاول مناداتي للاقتراب أكثر كشبح نحيل ينتظرني ليبتلع روحي التي يرى فيها ترياقاً تعيد حياته الضائعة، لن تشبعه روحي التي لا تكاد تشبع جسدي الخاوي.

تكلمت معك لأكثر من ساعة، لم أكن أشعر بضياع الزمن بل شعرت أن اهتممت لأمرك أكثر مما ينبغي في هذا الوقت الذي لا يساوي إلا بضع ثوانٍ ضائعة، لا أملك الوقت لأغوص في تفاصيل لا تهم، يمكن أن أنهي حياتي في أي لحظة، أسأل نفسي في أي سطر يجب أن توضع نقطة النهاية.

ستكون نهايتي، سأنتهي ولن تبقى مني سوى الذكرى، قرأت عن الكثير من الذين حاولوا الانتحار، بعضهم حاول ذلك لأهدافٍ نبيلة، وبعضهم ترددوا ولم يفعلوها في النهاية، ربما عثروا على نصف عمرهم

الضائع، أو لم يكونوا يعيشون حياة افتراضية، بعضهم مدعون يريدون الشهرة لا غير، لكني لن أتردد، سأفعلها عندما تحين ساعة الصفر ووقتها لن تكون فاصلة منقوطة لمواصلة حياتي بل ستكون نقطة الختام.

شعرت بدمي تحول إلى شيء يغلي حتى عند برودة الثلج، لا أعرف ما هذا، أصبحت قطرة زئبقٍ تنكمش على بعضها على زاوية بعيدةٍ منك رغم سرطان العشق الذي سببتِه لي كأني أخاف الاندغام في البشر فأتلاشى وسط ذوبانهم المرعب.

جعلتِ مني موجة هاربة تشبع ذرات الرمال المتناثرة على شاطئك الذي يقتله الكبرياء، تشبعي غرورك وتتركيني مبعثراً على غرفةٍ ضيقة داخلك لا أعرف أركانها، كأني تائه فيك ولا أعرف متاهاتك، قلت في نفسي «لا بأس»، توجهت نحو الشاطئ، استلقيت على الرمال، باردة جداً لكني تجاهلت برودتها، نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى الخامسة مساء، لم يكن هناك شمس، الجو غائم، تبقت فقط خمس وخمسون ساعة لحدوث أمر مهم كمسجون ينتظر انتهاء مدة سجنه ليتحرر على شفير الموت.

كنت في صغري أستمتع بصوت تلاطم المياه حينما يهتز داخل زجاجة أو علبة بلاستيكية، لكن في هذا اليوم له مذاق خاص عندما ترتطم الموجات الصغيرة ببعضها لتغني أنشودة المساء بحنجرة البحر،

لم أر في صغري بحراً أو نهراً، كنت دائماً أتمنى أن أراهما على الطبيعة، اليوم عاصف والمياه تتحرك وفق حركة الهواء العاصف فتصنع تلك المويجات الصغيرة بجمالها الذي لا يضاهى، ترتطم ببعضها البعض لتندمج وتولد أخرى أيضا.

نهضت ولم أكترث لبرودة الهواء الذي يضرب كل مساماتي بقوة، تقدمت حتى لامست قدماي البحر، اقتربت أكثر من البحر ويرتفع صوت ضجيج المياه كلما اقتربت أكثر، تقدمت حتى لامست قدماي البحر، تقدمت حتى وصلت المياه نصف ساقي، حركت قدمي أستمتع بمشهد الدوائر التي تثور ثم تتلاشى بسرعة كأنها طفل يبكي بقوة فتحتويه أمه ويصمت تدريجياً، تشبهه كثيراً.

لا يزال المطر يهطل بغزارة وقوة شديدة، كان ذاك مساء يوم خريفي رائع، تبلل كامل جسدي بالمياه، تشبعت رمال الشاطئ كذلك بالماء.

عدت إلى الرمال مرة أخرى، تشعرني برودتها بشبق شديد نحوها، استلقيت عليها مرة أخرى فاتحاً يدي، وأنا أنظر إلى غيوم تصور مشهداً ليس أجمل من صورة البحر بأمواج خفيفة أستمتع بموسيقى الماء، ثم تدريجياً عم سكون رهيب، وبدأتْ الأمطار تقل تدريجياً حتى توقفت، انتابني شعور غريب لأول مرة أشعر بالملل يبتلعني كاملاً دون تجزئة.

وضعت السماعة على أذنيَّ أستمع موسيقى ناي هادئة، لا أحب

الموسيقى الصاخبة، ليست هناك ضجة متوازنة سوى حنجرة البحر التي تجعل من صوت المياه شيئا مفهومًا كحديث بشر، جلست أستمع الموسيقى التي لا تزيد مدتها عن خمس عشرة دقيقة، أستمع إليها في سكون تام، أم أن الموسيقى هي التي خلقت ذاك السكون حتى لا أسمع غيرها، وفجأة حتى تلك الموسيقى توقفت، بقيت أسمع طنيناً اصطنعته أذناي حتى لا أشعر بذاك السكون المهلك.

رأيتك من بعيد ترسمين شيئاً على الأرض، اقتربت منك أكثر فأكثر، وفجأة وبدون سابق إنذار، عاد المطر مرة أخرى وبقوة ثانية، باغت انتباهي نهوضك من مكانك محاولة الرحيل، أوقفتك ثم قلت: ستحين ساعة الصفر بعد يومين وبضع ساعات وستتراجعين وابتسمت ابتسامة ساخرة، سمعتك تهمهمين بكلمات لم أفهمها، ثم استدرتِ وقلتِ: سنرى، وصرختِ بطريقة فجائية كمن لم يكن في وعيه: سنموت؟

لم أهتم أنا لنظراتك المعبأة بالدهشة والذعر فالأمر حتمي عندي، نظرت إلى الساعة كانت العاشرة والنصف مساء، تتباطأ عقارب الدقائق مع مرور الوقت، رفعت رأسي تعتلي شفتي ابتسامة خفيفة: تبقى تسع وأربعون ساعة ونصف الساعة، أي يومين بالإضافة إلى ساعة ونصف، سنفعلها أو ربما سأفعلها أنا تحديداً، تلاشت خمس ساعات ونصف ووضعت على الأرشيف، أصبحت قيد النسيان،

شعرت أني نثرت الكثير من الثواني على الأرض ولا يمكن التقاطها مجدداً.

أخرجت هاتفي، أصبحوا كل ساعة تمر تصرخ كلماتهم بالملل وتزيد امتعاضا، يتعذَّرون بأنهم يحاولون نصحي ليروا ما سيحدث أخيراً، ويعلمون أنهم لن يغيروا شيئا سوى أنهم سيروون شهوتهم المتعطشة للأحداث، يدونون مللهم حروفاً متكسرة في تعليقٍ أبله، أصبحوا كاميرات كصحفيين يتنافسون على صك صحفي ليحصلوا على الامتياز.

عبث بي شيء كنتِ قد رسمتِه على رمال الشاطئ سابقاً، سحبني كمغناطيس، اتجهت نحوه لأعرف ما هو، ها هو الآن لكن انجراف المياه وتساقط مياه المطر عليه جعله يبدو كخطوطٍ رسمت منذ مئات السنين، نظرت إليها بدقة، أربعة أصفار كما أصفار الساعة.

كأنك تقضين أيام حدادك الأولى، أو أنك تحاولين الاقتراب من النهاية افتراضا، لم يكن التفكير مناسباً في تلك اللحظة، استدرت قاصداً الرجوع ولكن لفت نظري جلوسك قرب البحر ثانية، كنتِ تنوين الرحيل منذ لحظات لكن شيء ما جعلك تغيرين رأيك.

لم تمر سوى خمس عشرة دقيقة فقط حتى الآن، بدأ الجالسون يتناقصون حتى بقينا نحن الاثنين فقط، اقتربت منك وسألتك: لم تجلسين لهذا الوقت المتأخر؟ لكنك لم تجيبي، شعرت أنا بغباء سؤالي، عدت إلى مكاني أشعر بشيء من الألم على صدري لكني لم أهتم.

بدأ المطر يخف شيئاً فشيئاً حتى توقف، ملَّ النزول دون جدوى كمن يشتكي ولا أحد يجيب، أو ربما مل ضرب جسدي الذي يبتل حتى أخمص قدميه ولم يشبع شهوته.

شعرت بشيء من النعاس يباغت جلوسي ويرجع حتى تمكن مني، غفوت قليلاً وأيقظتني قطرات الرذاذ التي لا أعرف مصدرها، هدوء تام غطى كل شيء، نظرت حيث كنت تجلسين، كان فارغاً تماماً، لم يكن هناك أحدٌ غيري، تبقى فقط يومان وينتهي كل شيء، ماذا سيحدث إلى ذاك الحين يا ترى؟! فقط أجلس على حافة من الحاضر الذي أوشك على الانتهاء أنتظر مستقبلاً ضبابياً متجهاً نحوي كغيمة من الضباب.

الواحدة صباحاً، لا أزال أجلس بقرب البحر المليء بالهدوء كموجة شاردة انفصمت عن البحر وجلست تتأمل هدوءه فانتشلت أخواتها

مكانها.

ينام العالم بكامل أقطاره، يأمل أن يستيقظ على بداية جديدة مليئة بالمأساة، يعشقها حتى الإعياء ليشفي شهوته الوحشية.

عاد الألم مجدداً ويزداد تدريجياً حتى شعرت أن أضلعي تشابكت وتطبقت على قلبي ورئتي، سقطت على الأرض من الألم، يزداد رويداً رويداً حتى أصبحت أتلوى كأن عظام صدري تتكسر.

قبضت يدي لا إرادياً على الرمال بقوة شديدة وجسدي يتقلب بعنفٍ باحثاً عن جهة ربما يخف عندها الألم قليلاً دون فائدة، غيرت وضعية جسدي بحذرٍ شديد إلى جانبي الأيسر، خارت قواي فأصبح جسدي ثقيلا، ثقيلا جداً، سقطت يدي أمامي مرتخية وبدأت أفقد وعيي جزئياً، لم أفقد وعيي كاملاً، لا أزال أشعر ببرودة الرمال تحتي وعيناي مفتوحتان نسبياً.

سعلت لفترة طويلة والألم يزداد بعنف، سال بجانب فمي شيء بارد، حاولت تحريك يدي لأرى ما هذا لكني لم أستطع، ثقيلة جداً كأنها وضعت عليها كتلة حديد، ربما هو لعاب أو دم كما حدث سابقاً، عيناي تتوجعان بشدة، فقدت وعيي كاملاً ولكني استيقظت بسرعة بسبب برودة الرمال التي تزداد أو ربما انتقلت البرودة مني إليها.

كأني أعاني ذبحة قلبية قاتلة، ولا يزال جسدي يقاوم، خرج ذاك

الشيء من فمي مرة أخرى ولكن لم يكن هناك طعم الدم في لساني، أدركت حينها أنه لعابي المريض، حاولت سحب قدمي لكني كنت كمتجمدٍ بسبب برودة الجو، وفجأة نزلت قطرة ماء على رأسي، ثم تتابعت قطرات المطر ببطء نحوي، انقلبت بجسدي الخائر على ظهري فسقط بسرعة، ربما كان هو الترياق هذه المرة.

شعرت بطاقة فجائية تتدفق في جسدي، نهضت، لا يزال العالم ينتظر خبر موتي الذي أوشك أن يحدث، أخذت نفساً عميقاً ثم صرخت: **Great**، ارتد صوتي الذي ضرب البحر وسط هدوء قاتل، كمولودٍ صرخ أول صرخة له بين أنقاض الحياة المتزاحمة فتوقف الجميع وأخذوا ينظرون له رغم أنها لم تكن أول مرة يرون مولوداً جديدا، لكنهم اعتادوا تحميل الأحداث تأويلاً لا تحتمله.

عاد إلي صدى البحر بعد أن اصطدمت صرختي بسطحه بصوت صاخب كمكبر صوتٍ ضخم يعلن صرختي أمام العالم.

لا يزال الألم ينهش جسدي لكن لا أريد الشعور به، نظرت إلى ساعتي، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، أصبح الملل هو سيد المواقف، بدا صوت المنبه يعلو كلما اقتربت من الانتهاء، شاركني المطر مللي، كان شاهداً على حالة ألبستِني إليها وهربتِ، حملت نفسي متجها نحو منزلي في أرض سوداء.

فتحت الباب، غافلني بصفير غير معتاد، بدا كأنه مهجور، دخلت

غرفتي، لا يزال كل شيء يرقد ببرود تام لم أر مثله.

كنتِ تجلسين في إحدى زوايا الغرفة المظلمة خائفة، ترتجفين بشدة، تبدين كغجرية يتلطخ الكحل بجانب عينيك بشعر منكوش، وترقد زجاجة كحول فارغة بجانبك، كنتِ مخمورة إذن، نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة على الغرفة، لا تزال العقارب ساكنة، حولت نظري إلى ساعة يدي التي أرتديها، توقفت أيضاً، كأن الوقت يتوقف داخل غرفتي، وضعت في فراغ لي فيه حساب للزمن، ربما لاحظ عدم وجودي داخله فعزلني بعيداً.

نهضتِ بجسد متهالك متجهة نحوي، رفعتِ الرصاصتين من الطاولة وأشرتِ بيدك: هذه لي، وهذه لك، مشيرة بيدك نحو الأخرى، لم أهتم أنا، نظرت إلى الطاولة، لا تزال الرصاصتان في المكان الذي وضعتهما عليه، والمسدس هامد في محله، هل قررتِ أن تخوضي معي هذه اللعبة أيضاً؟

لم تجيبي، كنتِ ثملة، نظرت إلى الجانب الآخر من الطاولة، كان هناك مسدس من عيار «9 مللي» أيضاً، لِمَ اقتحمت هذه اللعبة معي؟ لن يشهد جريمتي أحد سواي، جلست على الكرسي يغيظني برودك المفتعل، لم تفعلين هذا يا نوران؟ لم؟ أجبتِني بصوتٍ متعب: بعد يومين ستكون النهاية.

بل أقل من يومين، ربما 42 ساعة فقط هي المسافة التي تفصلنا عن

النهاية، رددتها بصوتٍ متعب: سنموت! سنموت!!

لم نتحدث كثيراً ذاك اليوم، لا أزال عالقاً على وهم الخلود الذي ادعيناه منذ أن ولدنا وحتى الآن، ورغم أني أدرك أنه وهم، لكن سينتهي كل هذا عندما تزاح تلك الطاولة من تحت قدمي ليشنقني الحبل الذي يرقد على عنقي منذ أن ولدت.

أمسكت المسدس، فوهته تزفر بالملل من انتظار حدث معلق على حبال الاحتمال، يشعر بالضجر كمريض يرقد على فراش الموت، أستجمع بعض العوالق على الذاكرة، أعيد ترتيبها لأحصل على شيء قابل للمحو خلال لحظات.

نظرت إلى الساعة، لا تزال العقارب عالقة، مللت الجلوس على المقعد داخل غرفتي، خرجت من الغرفة أو كما أسميتها أنا «العزلة»، أوشكت الشمس على الشروق، لا يزال القمر يرسم صورته على صفحة السماء، يحاول أن يسود على الشمس لكنه يتلاشى قبل كل شيء، نشبهه كثيراً عندما نستسلم لجبروت الحياة، نعشقها وتسحقنا كنملات صغيرة، نحبها وتنفرنا، تنفرنا كشحنة كهربائية سالبة، نصبح حشرات صغيرة فقط تتكوم على نفسها منزوية على ركن بعيد باحثة عن جحرٍ آمنٍ يحميها من تلك الأقدام التي تريد سحقها لأنها ملت طنينها المزعج.

كانت الساعة الرابعة والنصف، بدا النور ينعكس رويداً رويداً على

أجزاء المدينة، ارتخيت على الأريكة، كان الزجاج عاريا تماماً أمامي لا يحجبني عنه شيء، أنتظر شروق الشمس التي أوشكت أن تخطف مني بعض الدقائق.

لا نزال جالسين معاً ننتظر تفاصيل صراخنا الأعور عندما تدهسنا تلك الأقدام الخشنة لنفسرها، أحياناً نقول إنها سكرات الموت، أو هي صرخة عقاب على جريمة ما، أفكر كثيراً هذا اليوم، لكني لا أمتلك طاقة كافية لرفع قلم، أو ربما لا أريد الكتابة اليوم وفي هذه اللحظة تحديداً، فهي طريقة مهذبة لارتداء قناعٍ مبتسم للحصول على ثقة شخص ثم تسديد طعنة مباغتة على ظهره دون أن يرى، أكره أن أنتهي منك هكذا في لحظة عابرة تكون هي الفاصل بيني وبين الانتظار.

لامست جدار الوقت بيدي باحثاً لكني لم أجد لحظة تجسدني على صفحاتٍ لم أفهم ما فيها، كانت طلاسم لا أستطيع فهمها.

بدا الاحمرار يزداد يتوعد ببزوغ شمس صباح ذهبي، لكنه بدا قاتماً هذه المرة، أم لأنه لم يحن موعده بعد! تبقى القليل من الوقت، أصبح الأمر كلعبة مملة، والجميع مرغمون على المشاركة، وكلهم يشعرون بملل عارم ينتابهم، كلهم يصرخون بصوتٍ يملؤه ملل رهيب، أصبح لسان حالهم «يجب أن ينتهي الأمر ولو تحول لمأساة»، طال الأمر وانغمسوا فيه مرغمين حتى النخاع.

فتحت الراديو، كانت الإذاعة القومية، يتحدثون عن جريمة ربما ستحدث بعد عدة ساعات، مللت الأمر لم أكن أول منتحر ولن أكون الأخير، ليس الأمر غريباً إلى هذه الدرجة لكنهم يجيدون صنع حدث جديد من أقدم الأشياء، يحرِّفون كما يشاءون ، ويضيفون حتى يكونوا شيئاً لم يكن موجوداً أصلاً، ثم يذاع تحريفاً عبر وسائل الإعلام.

أغلقت الراديو الذي لا يجيد سوى التحريف وجلست أفكر، ماذا يمكن أن أفعل في يوم واحد، هل سأقضيه راقداً على الرمال؟

وفجأة هناك شيء غريبٌ لم أشعر به من قبل، لا يجب أن نكون صارمين كل هذا القدر، أريد أن أقضيها حالة هستيرية لم أجربها من قبل لكني لم أكن معتاداً على أشياء كهذه، هل سأتمكن من قتل نفسي داخلياً أم أن ذاك الكبرياء سيمنعني، حتى إن فعل فلن يمنعني من تنفيذ الخطة.

لا تزالين تجلسين داخل غرفتي، ما الأمر، سألتك: لم تجلسين بهذه الطريقة؟ كانت حرارة جسدك مرتفعة جداً، وتتعرقين كثيراً حتى تبلل الحائط، هناك وقت كافٍ للانسحاب ولا أحد سيمنعك، لم

تفعلين هذا؟ نهضتِ ثم خرجتِ من الغرفة بجسدك النحيل، هل انتقلت العدوى اليك، تحولتِ إلى هيكل عظمي متحرك أسمع صوت احتكاك عظامه الهالكة، أغلقت أنا الغرفة، لن أفتحها إلا لحسم الأمر.

لم أقرر يوماً شئياً، لم أتحكم في ذاتي منذ أن التقينا، سيكون هذا قراري الأول والأخير، لم تأتِ في الوقت المناسب أيضاً ، اقتربت النهاية ولن يكون هناك تراجع.

أصبح الجميع يتهمونني بالكفر والجبن أيضاً، يظنون أن جبني هو ما دفعني للانتظار كل هذه المدة، ويدَّعون كذلك أنهم يعرفون أني لن أفعل شيئا.

ابتسمت نصف ابتسامة ساخرًا، وأنا أنظر لحروفهم التي تخرج من حنجرة زرقاء تُدَوِّن اعتراضاً على ما يحدث، يتدخَّلون حتى في خصوصيات تبعد آلاف الكيلومترات عنهم، يتداولون خبر موتي الذي سيحدث بعد عشرين ساعة من الآن ويتشاجرون بسبب تعليقاتٍ سخيفة.

لا تزال هناك سويعات متبقية تعادل كل ما مر علي من ساعات في الحياة، لا أعرف كيف سيكون ترتيب الأحداث فيها لكن لا يجب أن أنتظر حتى أعرفه، الخطة هي أن أقوم بكل شيء، كل شيء، كل ما أستطيع فعله في عشرين ساعة، لم تكن هناك خطة، كل شيء

سيكون مباغتاً ومفاجئا رغم أني أقوم به قصداً.

يعتقد الجميع أننا نعيش لأننا بذلك سنظهر ذاك الشيء الجميل المخبأ داخلنا، يؤمنون بأن هناك شيئا يجب أن يبدو، ذاك الملاك الذي يدعون أنه يسكننا، لم أومن يوماً بهذا بل منذ ولادتنا تتناقص حياتنا تدريجياً حتى تصل إلى ساعة الصفر، معظم الناس يعتقدون أن هناك نصف ملاك يخبئونه عنا، مخبأ ولا يعرفونه حتى يكشفوه، أو ربما هي الحقيقة نفسها التي يعرفونها ولكن ينكرونها، لا أرى سبباً للحياة وهذا أكبر دافع للموت، لِمَ نعيش حياة لا نعرف لها سبباً؟ للموت سبب لا يخلوَ منه أحد، فهو أحد مسلَّمات البشرية، ورغم أن الحياة أيضاً من المسلَّمات لكن الموت أعظم إذا كانت الحياة بلا سبب، فبما أننا أحياء هذا يعني أننا سنموت في يوم ما لا نعرفه ينتظرنا في مكانٍ ما، ففي منعطف ما على طريق الحياة ستجده ينتظرك ولن ينتظر رأيك، بل سينقض عليك وستتم العملية في هدوء تام، أو ربما يعلو صراخك وتقاوم لكن دون جدوى.

كادت الشمس أن تشرق قبل أن يتجمع سحاب ليحجبها هذا اليوم أيضاً، هل سيهطل المطر من جديد ليغسل الأرض من قاذوراتها التي أصبحت في أي مكان ليطهرها استعداداً للنهاية الوشيكة.

لن أقضي يومي مستلقياً على الرمال التي تصبح نصف كائن لزج

عندما تلامسها روح الماء، هل سأفعل ما لم أفعله خلال عقدين من الزمان؟ أم أنها ستمر كما مرت سابقاتها؟ ليست هناك أحداث مجدولة، لم أكن أحب المفاجآت كثيراً، مللت الانتظار حقاً، لم يكن شيئاً مسلياً كما يظن الجميع، لم تكن لعبة كما يظنون.

منذ عامين فقط بدأ يراودني أن الخلاص من الحياة هو الحل الأسلم لبعض المعضلات التي لم تتمكن هي من معالجتها، ليست مشكلتي هي الحياة بل تلك المنعطفات التي تديرنا ثلاثمائة وستين درجة لتعيدنا إلى الصفر، ندور في خط دائري واحد ونكرر الدوران طول حياتنا ونظن أننا نمشي في طريق مستقيم، خط دائري مليء بالنتوءات المسننة، تؤلمنا بشدة عندما ندوس عليها، فتجعلنا نعرج في مشيتنا، وتقل سرعة دورانا دون أن نشعر بسبب تزاحمنا حل محورٍ واحد وخط دائري مغلق، يحاول كل واحد منا إيجاد مساحة صغيرة فقط لوضع قدمه عليها، نستعمل قانون الغابة فالضعيف يتلاشى بين كتوف الأقوياء، لا تنازل ولا إنسانية، ربما تكون جريمتي هي قمة البؤس وغاية الإنسانية في ذات الوقت فبمجرد خلع قدمي عن ذاك الخط الدائري، سيأتي آخر ويضع قدمه ليدَّعي الملكية، ويصبح قوياً دون حتى أن يفكر كيف حصل هذا بهذه السهولة، لن ينتبهوا إلى خروجي من بينهم، يدعون أنهم سيحزنون على فقداني أو بالأصح حين أخرج من ذاك الزحام، لكنها ليست سوى ادعاءات كاذبة، ربما يحزن بعضهم قليلاً ثم سيعودون إلى بيوتهم وهم يلوكون جثة جديدة، لا يهم إن كنت أنا أو أحد غيري، المهم أنهم يحبون أن تشبع

أنيابهم الملطخة بالدم.

خاسر أنا وربما الخاسر الوحيد في لعبة واسعة النطاق لا حدود لها ولا قوانين فيها سوى بعض الأشياء الوهمية التي نضعها نحن ونظن أننا بذلك خلقنا قوانين، رغم ذلك لا أظن أني خاسر فأنا أعلنت نفسي منتحراً أمام الجميع ولن ينقذني أحد، لن يفعلوا، لم أعرف معني الربح أو الخسارة قبل اليوم ولا أظن أني سأستفيد من معرفتهما.

كل شيء على ما يرام حتى الآن، جالسان على بعد تسع عشرة ساعة من حافة الزمن حيث ستصرخ النهاية، لا أمتلك فرصة لأومن بشيء أو أصدق شيئا، شبه منوم مغناطسياً لا أعرف كيف أومن بأشياء وكيف أكذب بعضها، أحاول تناسي ذاتي التي انغمست بين شرايينك لأصبح شيئا مبهماً لا هوية لي سوى أنفاسي التي تراجعت، أو ربما كتلة من الأحاسيس المجمدة التي أصبحت حجراً يذوب ولكن لا يظهر تلك التفاصيل بل تتدفق فتتلاشى رويداً رويداً حتى تنتهي مع انتهائه، يقرب مني يقين عجيب أن الساعة الثانية عشرة هي الأخيرة في حساب حياتي.

فتحت درجًا وبدأت أقلب باحثاً عن شيء كنتِ تحبينه ولا أزال أحتفظ به منذ أكثر من عامين ولا تزالين تذكرينه، وضعت قرص زامفير، تلك الفولكلورية الرومانية التي تعشقينها، على مجرى

داخل حاسوبي ثم فتحت الصوت، فلوت زامفير الآن يدور حول محورٍ كأنما ساعة تحسب كل عصور التاريخ لتجعلها تدور في عمق حاسوبي، أسمع ذاك الصوت الآن بوضوح وهدوء تام، لم أكتشف الحقيقة المخبوءة وراءه، يجذبني بكل قوة وأستمع بحذرٍ شديد، يجول بي كل العصور ربما ليعود بي لنهاية، أسمع صوت الروح المخبوء خلف أسراب الثواني وتلك النداءات المتتابعة تقودني إلى جنون لم يكتف مني بعد، أشعر بالضيق رغم سعة الكون المظهرية، يضرب ناي زامفير ذاك مخبأً بعيدًا لم أزره منذ زمن سحيق، أخرج القلق المدفون بين أسراب الفرح الكاذبة كنبتة زينة.

نقضت الهدنة التي عقدتها مع بقية الساعات القادمة رغم أني من اخترت، أعاد في قرصك ذاك الحياة في جسدي، ينفخ داخلي الروح لينقذني من غيبوبة ربما لن أفيق بعدها رغم كل شيء، موسيقاه هادئة جداً لدرجة أنها تخرج نثار صوتٍ ثم تتجمع وتزحف ببطء شديد لتضرب الحائط ككرةٍ متدحرجة دون أن ترتد، فيتلاشى الصدى على بعد ملليميترات من الحائط رغم الهدوء، مخيفة جداً كصوت عميق مفكك يخرج من فم واحد وحناجر متعددة كتعدد نبراته تماماً، لم يكن ذاك صوت إنسان، ربما جني هارب يبحث عن روحه داخل جسدي أو ربما هو صوت غول، نعم غول، ذاك الكائن الخرافي الذي لم أسمع به سوى في الروايات، أم أنه المقطع الأخير من سيمفونية

الموت التي لم أنصت لها قبل الآن، ببساطة هو صوت فتحات الفلوت عندما يذوب بين يدي عازفٍ بارع فتخرج تلك التأوهات المندمجة بصراخ، ليس صراخ ألم بل هو صوت المتعة، حروف متقطعة مع بعض التأوهات فقط.

أدخلتني غيبوبتك في حالة لم أفهم ماهيتها، ربما لأني كنت أعيشك بملء جسدي أنثى افتراضية، لم أعلم أنك تمرضين، لم أعش موتك يوماً بهذا الامتلاء الذي أحسه الآن، امتلاء من نوع غريب لم يترك لي مسام لأتنفس به كأنك توزعت على كل عضو مني، أحتاج أن أمحو ذكرياتك فقط لتسع عشرة ساعة قادمة لا أكثر، وبعدها ستريننني جثة، ربما أكون مجنوناً بمحاولتي هذه، لم يكن موتك حقيقة بل فرضية سأستعيرها منك فقط لعدة ساعات.

انتابني ارتباك مميت عندما رأيتك ترقدين على النقَّالة وضجة حولك، كنتِ بعينين نصف مفتوحتين، الأطباء وضجة المتزاحمين حولك تمنعني من رؤيتك جيداً، حاولت الدخول في صراع عنيف من أجل رؤيتك لكن دون نتيجة، كان الأطباء حولك يمنعون الناس من الاقتراب، لم يكن بإمكان أحدٍ الاقتراب، تقدمت أكثر لأتأكد إن كنتِ هذه أنتِ حقاً أم أنها تشبهك فقط، اختلطت الأصوات ولم أتمكن من تمييز كلمة وفجأة رأيتهم يحملونك نحو غرفة العناية المركزة ولا يزال الازدحام أمام باب المشفى مع ضجة واختلاط أصوات، ومن بين ذاك الزحام صرخ أحدهم: يقولون إن

تلك الفتاة حاولت الانتحار فقطعت شريانها، شلت جميع أطرافي عندما سقطت تلك الكلمات على أذني، كأن العالم سقط على رأسي، أصبحت تمثالاً منحوتًا وسط زحام العالم الذي يتحرك حولي بسرعة مفرطة، وقدماي مثقلتان جداً، تسربت عبر مسامي حالة من الذعر، صمتت الضجة وتشتت الحشد من أمام المشفى، أحسست كأني أسكن كوكب الأرض وحدي رغم تلك الحشود حولي.

كان مرضك سبباً في إرجاعي إلى بعض الأشياء التي باتت مدفونة في عمق حفرة بعيدة جداً بما في ذلك هويتي المسروقة منذ زمن، كدت أصل إليها الآن صدفة بعد بحث استمر لأعوام عديدة، أحاول الخروج من جلدي لأعيشك كاملة بكل تفاصيلك لسويعات قليلة ربما تكون هي الأخيرة، تذكرت تلك الورقة التي وضعتِها على كفي قبل رحيلك، لم أقرأها بعد، بحثت عنها كثيراً وأخيراً وجدتها، تحتوي على كلمة واحدة فقط من أربعة حروف لكنها كانت باهتة كما أنتِ باللون الرمادي لم تكوني واضحة بما يكفي، كتبتِها بطريقة تحتمل التراجع في أي لحظة كأنك تضعين قوانين تحميك دائماً حتى وإن كنتِ مذنبة، تكتبينها بالرصاص لتمحى في أي وقت أردتِ ذلك.

أحدث مرضك زلزالاً غَيَّر كل نظام حياتي وأعاد كل ما هو خفي إلى الحياة مجدداً، حين كتبت تلك الورقة، بُعِثتْ تلك اللحظات في

ذهني من جديد، حين كنا نتمشى على إحدى الحدائق، جلسنا على ظل شجرة تشكو الوحدة، تفقد أجزاءها شيئاً فشيئاً بجسد خائر على إحدى المقاعد، جلست أنا مرتخياً على ذاك المقعد وأنت بجانبي، كنتِ دائماً تتشتتين على من حولك ولا تجلسين بأكملك، كنتِ نصف جالسة، حاولت تقبيلك فأبعدتِني بدفعة، تمنعينني أصدق اللحظات قضيتها معك، لم تجيدي يوماً وهب نفسك لبضع دقائق صادقة، كنت أرقد نصف مغمى علي فوضعت الورقة على قبضة يدي ثم هربت.

استيقظت فوجدت نفسي وسط حشد من الهدوء أجلس وحدي، تحسست بيدي شيئاً ما كان داخلها، ما هذا..؟ كانت هذه الورقة، لكني لم أعلم ما كتبت فيها إلا الآن، ولم أكن أعلم أنها منك أصلاً، كانت محاولة منك لأعرف مدى شجاعتك وجرأتك.

وفجأة بدأ الضجيج مرة أخرى، وتدافع الكثيرون نحو باب غرفة العناية المركزة عند سماع صوت الباب، إلهي من هؤلاء؟! تحركت بجسدٍ يرفض المشي وسط ذاك الزحام الخانق، ضربة هنا وضربة هناك لكني لم أشعر بشيء، لم ينتبه أحد إلى وجودي بينهم، لم يروا سوى ذاك الرجل الذي يرتدي جاكيت أبيض وسماعة نائمة على عنقه، أصبح نظرهم منشغلاً جداً لا يستطيعون التركيز في تلك اللحظات، أصبحوا مخلوقات مهجنة بالهلع، تجمعوا حوله، أطبقوا

عليه ثم اندغمت أصواتهم في صراخ واحد كطنين النحل، لم يفهم منهم شيئا ولم يجد فرصة للحديث معهم، وكلهم يحاولون الوصول لشيء واحد ولكن بعدة كيفيات لا يجيدونها، تسرب من بينهم وخرج دون أن ينتبهوا وضجتهم لا تزال تعلو، ثم دون أي سابق إنذار صمت الجميع بعمق للحظات ثم بدأت أصواتهم المتعبة تتساءل من جديد: ترى كيف هي الآن؟

ما الذي جعلها تحاول الانتحار؟ هل هو خذلان الحب؟ هل هي وقعت في الحب أصلاً؟

يتساءلون كثيراً ولا يجيبون على سؤالٍ واحد، أصبحت أسئلتهم تملأ جميع أركان المشفى ، انتشرت تلك العدوى بسرعة، أصبح الجميع يتداولونها، كنت أنا فقط معزولا عن العدوى رغم أني غارق فيها حتى الأوداج.

صمتوا عن تساؤلاتهم وجلسوا على مقاعد الانتظار، توجهت أنا بخطواتٍ مترددة نحو باب الغرفة التي كنتِ ترقدين فيها، فتحته بهدوء تام، عيناك مغمضتان تماماً وشيء ما متصل بشاشة، تلك الخطوط المتعرجة متذبذبة كموجات هائجة ترسم حياتك، فتحت تلك الورقة التي كنت أمسكها بيدي وأخرجت قلم حبرٍ من جيبي، سندت الورقة في كفي الآخر ثم كتبت تعليقي: «ما أتفه البقاء!» ووضعتها على كفك التي تقبضين عليها بشدة ثم نظرت إلى الشاشة

مرة أخرى، دقات قلبك تتباطأ قليلاً، ليتني كنت مكانك، كنت سأموت على فراش أبيض كما أنتِ، لكن ربما لن تموتي.

خرجت من الغرفة وسط صمت أكاد أسمع فيه صدى تلك الخطوات المريضة على الأرض، استجمعت شتاتي الآن فقط، عرفت أن ذاك الزحام كان خالك عبد العظيم وبناته وزوجته ومعهم آخرون أخبرتني بأنهم يقيمون هنا، وضعت أول خطوة لي خارج الغرفة، ينظرون إلي نظرة اتهام بمحاولة قتلك أو جعلك تنتحرين، لم أستطع ترجمة نظراتهم غير ذلك، أحسست أني فريسة سيصطادونها قريباً، ترددت في السير بينهم، توقفت لبرهة كمتراجع ولكن لا فائدة، انطلقت بينهم ولم يحدث شيء، لم أكن خائفا لتلك الدرجة.

ابتعدت خطوة أو اثنتين عن باب المشفى، وقفت وقفة مباغتة ثم نظرت إلى منزلي، ها هو الحائط الخلفي يقع على مسقط البصر لكن تباعدت المسافات فجأة، حاولت أن أعيش تلك الحقيقة لكني أفشل في كل مرة أحاول في ذلك ربما لأني قابلتك في نفس المشفى ولم تكوني مريضة، أعيش موتك حقيقة فرضته الساعات علي وحدي.

سيساعدني موتك كثيراً، ربما في استرجاع هويتي المسروقة أولاً وقتل حواء داخلي، كم أشتهي تمزيق ذاك الاسم! أنتِ لم تكوني حوَّائي التي أشتهيها ولن تكوني كذلك، رغم أني أعلم ورغم كل التفاصيل التي بدت لي بكل وضوح لم أستطع مقاومتك.

كلما أحاول كتابتك لا أجد طريقة غير تلك الحروف المبعثرة بطريقة عشوائية على ورقة صغيرة ألصقها معاً بقلم الحبر لأكونك على ورق، أكتبك وأنا أعيش تفاصيلك بعمق لدرجة أني أعرف دهاليزها وإلى أين تقودني وأعرف منعطفاتها القاتلة.

أعادتني قدماي نحو منزلي دون أن أشعر، لم يكن هناك شيء غريب، سوى الغبار المتزاحم على سكينة الأشياء، فتحت الباب ثم دخلت، الأشياء مبعثرة هنا وهناك، فتحت النوافذ ثم أخرجت هاتفي، لا يزال العالم ينتظرني، مل الانتظار حقاً ومللت أنا، حتى الذي يقرر الانتحار لا يموت بسلام.

تبقت فقط اثنتا عشرة ساعة، كيف تكثفت تلك الأحداث على مسافة ضيقة من الوقت، تغير نظام حياتي بين حوالي ثماني ساعات ولم يحدث هذا من قبل، كادت فترة حدادي أن تنتهي وقريباً سأقتلع هذا السواد وارتدي الأبيض بسلام.

بحثت في صندوق رسائلك التي أقرأها دائماً، أعيد قراءتها آلاف المرات، أقرأها بحجم الخسارة وتلك الحماقات التي ارتكبناها في حق أنفسنا، نظيفة كما تركتِها، ناصعة البياض، أنظفها كل يوم، أبحث عَلِّي أجد رسالة تنبض بالروح قد تكون سبب تراجعي عن القرار الذي كنت أراه نهائيا، لم يكن هناك شيء يستشعر روحي المغمى عليها داخلك.

مشكلتي أني أعيشك بكامل تفاصيلك بروح تنبع من قلمي، أكتبك وأعيشك كما أنت من لحم ودم ثم تقتلينني لضعفي، لا أعرف كيف أخرج منك أو أخرج مني.

لم تمر سوى سبع دقائق حتى الآن ولا يزالون ينتظرون نهايتي، أصبحت تعليقاتهم اليوم أضعاف ما كانت عليه، بعضهم يشتم وبعضهم يسب وغاضبون، حروف مليئة بالانتقادات المفجعة، سبني بعضهم وشتم أمي وأبي، يتأففون من رائحة أفكارهم القذرة.

حملت هاتفي وخرجت من المنزل، التقيت ميشيل، سألتني : هل ما كتبته على «فيس بوك» سيحدث حقا؟

- ربما سيحدث.

- أنت مجنون؟!

لم أهتم كثيراً، كنت أفكر، أفكر ماذا سأفعل في هذه الساعات المتبقية، بدا الوقت يضيق قليلاً وتزاحمت الأفكار داخلي، هل سأذهب لفتاة أحبها لنقضي بعض الوقت معاً وأخبرها أنها ستكون آخر لحظات لي معها، ربما سنتسلى قليلاً، سنذهب للسينما لمشاهدة فيلم رومانسي تحبه هي كثيراً، أو ربما سأقضي بعض الوقت في تسجيل مذكراتي ثم أغفو غفوة أبدية.

قاطعتني ميشيل بقولها: ما رأيك أن ندخل المقهى؟

توجهنا نحو المقهى، كانت ميشيل تتحدث كثيراً، تحاول إخراجي

من تلك الحالة التي غرقت فيها، سألتني بحروف مترددة: بالمناسبة لم لا تحبني أنا وتتنازل عن قرارك؟

لم يكن التاريخ عاطفياً بما يكفي ليجعل منا محبوبين يا ميشيل، أكتفي بعلاقتنا السطحية، لا أريد أن أعيشك رواية.

نظرت إلى الساعة، كانت الواحدة والنصف مساء ولا يزال الجو غائمًا يتوعد بالمطر.

عدت لمنزلي، لمست جيوبي باحثاً عن مفتاح غرفتي، لم أكن أضعه في جيبي أصلاً، نظرت إلى طرف طاولة الطعام، كان موضوعاً هناك، رفعته ببطء شديد ونظرت إليه بتمعن، هل هذا هو حقاً ولكن من الذي وضعه هنا؟! لم يكن في ذهني مساحة للتفكير، فتحت الغرفة، على مرمى بصري تلك الورقة الفارغة والقلم، شيء ما يدفعني لكتابة نفسي قبل فوات الأوان، رميت كل تلك الأوجاع على ركن مهجور من الغرفة وبدأت أكتب، كتبت كثيراً هذه المرة، كتبت بإسهاب كل تفاصيلي على ورقة، كل تفاصيلي وكل ذاك الغموض الذي يرونه علي.

سحبت ورقة فارغة أخرى محاولاً كتابة رسالة لك كتبت فيها: «سينتهي كل شيء، ولن يكون هناك شيء عالق بيننا، أحب أن أصفي حسابي معك بهذا النص، أريد انتزاع هويتي من بين حطامك ثم سأرحل، لم أتغير ولن أتغير، حتى توقيعي لا يزال كما عهدته منذ أن عرفتك وحتى سكرات الموت»، ثم كتبت أسفل الورقة: «إلى نوران حبيبتي والحداد».

المسدس مرتخ على الطاولة والرصاصتان كذلك، كلاهما ينتظر العمل، ربما ستكون نهايتي هي نهايتهما التي ينتظرانها طول هذه المدة، نظرت عبر النافذة، شوارع باريس مكتظة جدا، كعادتها باريس مزدحمة لكن هذه المرة بدت مختلفة، يحتفلون بعيدٍ ما هذه المرة، انشغلت بالأمر، ما هذا يا ترى؟ بدأت أتذكر التاريخ، ما هو تاريخ اليوم، نعم إنه الرابع عشر من فبراير، إذن هو عيد الحب كما يدعون، يعتقدون أنهم يقدسون الحب بهذه الطريقة، كم أكره هذه الاعتقادات!

سيكون احتفالي في الثانية عشرة ليلاً، لا يزال الوقت مبكراً على هذا، لم يحن وقت الاحتفال بعد، أجلس وكأن الضجة في طرف أذني لا أفهم شيئا، ووسط تلك الضجة سمعت صوت هاتفي، كانت تلك أمي، إلهي كم اشتقت لها، أذكر أنها في آخر مكالمة لي معها قالت لي: اهتم بنفسك يا بني وعد لنا سالماً، قالت لي: متى ستأتي؟ هل نسيت أمك؟ لم أعرف بماذا أجيبها، لم يتبق لي أمل في هذه الحياة، لكنني لا أستطيع أن أقولها، لن أزيد همومها، كم كنت أتعذب في تلك اللحظات، أجبتها بصوت خافت: سآتي قريباً، سآتي، سكتنا

قليلاً ثم أغلقت الهاتف وخرجت من المنزل، كل من التقيه يقول لي: «happy valentine»، لم أكن أهتم، هي فقط تعازي الحب الذي سيتحسرون عليه يوماً، لكن مهلاً، لم يقولونها لي بالإنجليزية، هل أبدو كإنجليزي، أم أنهم يقولونها هكذا لكل شخص ليس فرنسيًّا.

يصدمني هذا ويضربني هذا، هذا معتذر وهذا غير مبالٍ دون أن أهتم أنا للأمر وفجأة أغمي علي فسقطت على طريق المشاة، ظننت أني ميت في البداية، سمعت ضجة حولي، صرخ أحدهم: من هذا الذي يرقد في منتصف الطريق؟ وازدادت ضجتهم وبدأ الضجر ينبش أطرافهم، اختلطت الأصوات ثم فجأة شعرت بأصابعهم تلمسني، بدأوا يبحثون عن شيء يدلهم عني، سمعت سوستة حقيبتي تفتح ببطء كأنهم يحاولون سرقة شيء، حاولت النهوض لكني لم أستطع، فتحوا حقيبتي يقلبون أشيائي، صاح أحدهم: ربما هو كاتب فهو يحمل الكثير من الأوراق وأقلام حبر، أو ربما طالب جامعي ولكن لا يبدو عليه أنه فرنسي.

ازدادت ضجتهم حولي ثم صرخ أحدهم: هذا رجل مجرم وربما يرتدي هذه القبعة الكبيرة حتى لا يعرفه أحد، مجرم..! كيف أكون مجرمًا؟! نظرت بعين مغلقة، لم أكن أرى جيداً، كان هناك أحد يمسك بشيء أسود لم أتمكن من تمييزه وبدا أنه الذي تحدث، كان ذاك مسدسي، نعم إنه المسدس، قال أحدهم: ربما هو من مسئولي الدولة

لذا هو مسلح حماية لنفسه أو أحد الأثرياء.

التقطوا هاتفي الذي كان مرمياً بعيداً عني يبحثون في مكالماتي محاولين إيجاد أحد يعرفني ثم صاح أحدهم بصوتٍ عالٍ: يبدو أنه رجل متزوج، ازدادت دقات قلبي.

أعادوا أشيائي إلى مكانها وسمعت وقع أقدامهم على الأرض وهم يغادرون ثم سمعت صوتًا يقاطع سباتي: يبدو أن ضغط دمه مرتفع، وهو معرض لجلطة دماغية، إذا حدث هذا لن يصمد طويلاً فهو مصاب بالسرطان أيضاً.

حاولت تحريك رأسي ولكن هناك شيء ما يمنعني، أغمضت عيني متجاهلاً الأمر لفترة، كانت هناك حركة أقدام يبدو أنها قريبة مني ولكنها تبتعد قليلاً حتى اختفت تماماً.

أحتاج لأن أعرف الكثير، حاولت أن أنقلب على جانبي، أحسست بوخزة مؤلمة في الشريان تحت كفي مباشرة وشيء ما يشدني ويحاول منعي من فعل ذلك، حاولت أن أرى ما يحدث، لم أستطع فتح عيني بصورة كاملة، كنت أرى بشكل ضبابي ولكن تحسنت الرؤية قليلاً، عرفت أني داخل غرفة وحبل معلق بين يدي وشيء آخر عال تتبعته، كان أنبوبًا بلاستيكيًّا مرقمًا، بدأت أتذكر أين رأيت مثل هذا من قبل، هل هي....؟ نعم أنا في المشفى الآن، يضعون على أنفي جهاز أوكسجين، بحثت في الفراش الذي أرقد عليه عن أشيائي قبل أن

تسقط عيني على بعضها موضوعة على منضدة صغيرة بجانبي، لكنها ليست كاملة، فقط هاتفي وبعض الأوراق والقلم، تلفتُّ حول أنحاء الغرفة، الحقيبة! أين الحقيبة؟ ومسدسي أيضاً، ثم في حالة لا وعي بدأت أصرخ، أين مسدسي؟ أين المسدس؟

دخلت الممرضة بعد سماع صراخي ثم قالت: لا تحاول الحركة سيدي.. ضغط دمك مرتفع ومعرض لجلطة دماغيه لا يجب أن تتحرك.

متى حدث هذا؟! مهلاً، من أحضرني إلى المشفى؟ هدأت بصورة فجائية، هدأت جسدياً ولا تزال الأسئلة تحوم حولي، ساعتي موضوعة على المنضدة أسمع حركة عقاربها، كم الساعة؟ ثمة شيء يجب أن يحدث، أين المسدس؟ أصرخ وأنا أحاول الحركة باحثاً عن مسدسي، ثم فجأة أحسست بشيء يخترق جسدي لم أشعر بعده بشيء، دخلت في غيبوبة تشبه الموت ربما استمرت لعدة أيام دون أن أدري.

بدأت أستيقظ، كان هناك شيء أبيض يتحرك نحوي، اقترب أكثر، كانت تلك الممرضة، ماذا تريد هذه المرة؟ أمسكت يدي ثم بعد قليل شعرت بشيء يُسحب أسفل الكف، ما كان هذا؟ وقبل أن أكمل تساؤلاتي آخر يخترقني.

كنت متمدداً على الفراش لا أمتلك قوة لتحريك أصبع، تحسست جسدي، لا أشعر بقدمي ولا يدي، حاولت رفع رأسي ولكن تذكرت

ذاك الشيء الذي كان موضوعاً عليه، لم أحس به هذه المرة، يبدو أنه غير موجود، رفعت رأسي، نظرت لقدمي، كانتا مغطيتين بقماش أبيض، ماذا حدث، هل هما موجودتان، أراهما أمامي ولا يمكنني تحريكهما كأنهما لشخصٍ آخر.

خرجت الممرضة بعدً أن أعادتني لوضعيتي القديمة، يملأ الغرفة سكون غريب وبعد عدة دقائق سمعت صوت الباب يفتح ببطء شديد ثم دخل أحدهم، كانت فتاة لكن لم أعرفها قالت لي: وأخيراً استيقظت.. انتظرتك طويلاً لكن لا مشكلة، المهم أنك استيقظت الآن، من هذه الفتاة؟ لم أرها من قبل، لم يترك لي المرض مساحة للتفكير، استحوذ على كل تركيزي.

برد شديد خيم على الغرفة أو ربما على جسدي المريض فقط، أرتجف، أرتجف بشدة حتى أسمع اصطكاك أسناني، ذاك الحبل المعلق بين يدي والأنبوب يقيدني في كل مرة أحاول فيها تحريك يدي، يشدني ولا أتمكن من الحركة، شعرت بجوع يتدلى نحوي ببطء فأنا لم أتناول طعاماً منذ أن دخلت المشفى، لم أكن أفكر في شيء سوى الطعام، ألن يأتي أحدهم ليحضر لي طعامًا؟ لكن من سيأتي؟! لا أحد.

توقفت عن التفكير لبرهة أراجع الأحداث، لِم أفكر؟ ولِم أطلب الطعام أصلاً؟ لِم لا أترك نفسي للجوع ليقتلني وينتهي كل شيء؟ الخطة هي أن ينتهي كل شيء بأي كيفية، المهم أن أنتهي، ولكن لن

يقتلنا شيء قبل أن تتصيدنا ساعات الموت المحتمة لنا، لم أحب ذلك لكني مجبر على قضاء لحظات لا زالت تنتظرني على سطح الأرض.

رفعت رأسي بسرعة، كان هناك شيء لا بد أن أراه، تلفتُّ حولي، أمامي مباشرة باب، وهناك نافذة صغيرة عالية جداً، ثم نظرت إلى الناحية الجنوبية حيث الحائط، وهناك باب صغير لا أعرف ما هو، التفتت بسرعة، قد تكون هي الطاقة الأخيرة التي سأرقد بعدها على فراش الموت، مكتوب فوق الباب على لوحة زرقاء باللغة الإنجليزية «Intensive care»، هل أنا في وحدة العناية المكثفة؟!

فجأة سمعت صوت صفير كان قريباً بجانبي لكنه يبعد قليلاً شيئاً فشيئاً حتى تلاشى ذاك الصوت من أذني، وبدأت أسمع ضجيجًا لكنه كان بعيداً ولم أعد أرى شيئا.

سمعتهم يقولون: إنه يحتاج لصدمة كهربائية بسرعة، وبعدها لم أسمع شيئا، جذبني شيء كمغناطيس بقوة ثم بدأوا يتساءلون: هل استعاد نبضه؟ صاح أحدهم: نبضه ضعيف للغاية، أخشى أنه سيموت لو ظل على هذا الحال، تكررت تلك كثيراً لا أعرف كم مرة ثم صاح آخر: لقد استعاد نبضه.

شعرت بوخزة على يدي الأخرى وشيء ما نزع من يدي، ووخزة أخرى يبدو أنها تركت ولم تنزع، حاولت فتح عيني ولكني لم أستيقظ بما يكفي لفتحهما، لم يخرجوا بعد، سمعتهم يتحدثون عن أخذ عينة

وبطريقة مقاطعة لاسترخائي الذي بدأت أسترجعه كاسترجاع روح شعرت بوخزة أسفل العمود الفقري، مؤلمة جداً كأن شيئا ما يسحب مني ثم نزعت تلك الإبرة، من هؤلاء حقاً؟ حاولت إقناع نفسي بأنهم أطباء.

انقطعت الأصوات عني، يبدو أنهم رحلوا، استجمعت قواي لأفتح عيني، لم أجد سوى الفراش الأبيض الذي أرقد عليه وأشيائي المبعثرة على المنضدة، عم هدوء غريب، لم يكن هناك أحد، تركوني وحدي وسط أربعة جدران.

مللت هذا الفراش، أود الخروج من هذه الغرفة، أشتم رائحة الدم في كل مكان، دق طبل أذني صوت نواح كان من الخارج، من الذي يبكي الآن؟ حركت يدي اليمنى التي لم أكن أشعر بها كأنها تتحرك وحدها لأنزع الإبرة من يدي الأخرى ونزعت الأوكسجين من أنفي لأتحرر، حاولت تحريك قدمي لكن ألمًا غريبًا نزل فجأة، وبدأت أتعرق بشدة، سقطت على الأرض، عرفت أني لن أستطيع الحركة، تذكرت أن هناك شيئا على فعله، سحبت جسدي نحو المنضدة التي كانت قريبة مني، ثم رفعت يدي أتحسس ما فيها، أبحث عن المسدس وأثناء بحثي سقط شيء ما على الأرض أصدر اصطدامه بالسيراميك صوتًا عاليًا، تحسست تحت الطاولة، نعم هذا هو، لم يكن ذاك المسدس، كان قلمًا، لم أكن أحتاجه في هذه اللحظة، أين مسدسي؟ لم يكن موضوعاً

على الطاولة.. إذن أين هو؟

تباعدت المسافات كثيراً، المسافة من فراشي إلى باب تلك الغرفة في الوضع الطبيعي لا تحتاج سوى بضع ثوانٍ، أصابني اليأس، رقدت على الأرض، رن هاتفي كالجرس المعهود في كل مرة ينبهني لوجود رسالة أو شيء جديد، فتحت الهاتف، كان تعليقاً على «فيس بوك»، لكن مختلفاً هذه المرة: «لا يجب أن نربط حياتنا بأشخاص، بل أن نعيش ذواتنا ولا نلبس أقنعة أشخاص آخرين».

جعلني هذا أعيد التفكير قليلاً ثم شعرت بلا مبالاة غريبة لم أشعر بها من قبل، زحفت نحو الباب، بعيداً جداً، أتنفس بصعوبة وبأنفاسٍ متقطعة، استجمعت قواي أحاول الوقوف ثم تحركت متجهاً نحو الباب، أدرت القفل بصعوبة كأني هارب، بل كنت هارباً حقاً، تلفتُّ أبحث عن الحقيبة والمسدس داخل الغرفة لكني لم أجدهما، قبعتي على أحد مقاعد الانتظار، أخذتها ثم اتجهت خارج المشفى مغطيًا وجهي بالقبعة، كنت أسير ببطء شديد لدرجة أني ظننت أني لن أخرج من المشفى قبل يومٍ كامل، أمشي ببطء شديد، إذا حاولت الإسراع سأسقط وستعاد الكرّه من جديد.

خرجت من المشفى، كأن قصبتي الهوائية أغلقت، لم أعد أتنفس، انقطع تنفسي ثم عاد مرة أخرى، نظرت إلى السماء، لم تكن تبدي تفاصيل ككل يوم، استأجرت «تاكسي» إلى منزلي، لن أستطع السير

كل هذه المسافة، دقات قلبي تتسارع كأني أمشي على قدمي، ازدادت بشدة ربما هي دقاته الأخيرة يخرجها دفعة واحدة، اتكأت على المقعد مرتخياً، خارت قواي وفجأة قاطع غفوتي صوت سائق التاكسي: لقد وصلنا، وصلت المنزل، لكن كيف حدث هذا بهذه السرعة؟

اتجهت نحو البوابة، فتحت الباب وفجأة سمعت صوت ضجة كأنه طلق ناري، ركضت بسرعة نحو غرفتي، أسكن وحدي في الطابق العلوي الذي صدر منه الصوت، إذن من هذا؟! وعلى نهاية الدرج وقعت عيني على جثة فتاة ملقاة على الأرض، أنتِ تلك الجثة، نظرت حولك، كثير من الأشياء المبعثرة بجانبك والمسدس ملقى على مسافة قريبة من يدك اليمنى.

أدركت الآن وبعد فوات الأوان أنك قررتِ إقحام نفسك في لعبة حتى الفائز فيها يعد خاسراً، والآن تجلسين أمامي صورة فقط، لِمَ تفعلين ذلك بي؟ هل تتوعدينني بنهايتي القريبة، حان دوري الآن، نظرت إلى الطاولة، لم يكن المسدس موجوداً لكن الرصاصتان قابعتان في مكانهما، أخذت رصاصة ونظرت إليها، ستكونين مجرمة ولكنك بريئة لن يحاسبك القانون، الشاهد الوحيد لجريمتي ولن يدلي بشهادته.

استجمعت قواي وأخذت نفساً عميقاً ربما يكون الأخير، أخرجت خزانة المسدس، يداي ترتجفان بشده وأتعرق، كانت الخزانة فارغة

تماماً لا تحتوى رصاصات، وضعت الرصاصتين داخلها ثم أرجعتها مكانها، ازداد ارتجاف يدي وتعرقي، لم أنا خائف؟ هذه النهاية التي انتظرتها طويلاً، تذكرت أني سأموت بأي حال من الأحوال، وربما منحتني الحياة فرصة للنهاية التي لا بداية مزورة بعدها، لن تكون هناك بداية جديدة بعد الآن، سمعت صوت إنذار سيارات الشرطة، هل سيقبضون علي، وفي حالة لا وعي أحسست بيد تمسكني ثم تسحبني، لم أنتبه أنه رجل شرطة إلا بعد بضع دقائق، اتهموني بقتلك دون أن أفعل، أصبحت مجرماً دون أن أكون كذلك، ولكن لن أتخلى عن التي قررت أنها يجب أن تحدث، وضعت عنقي على حبل المشنقة دون أن أقتل أحداً، حكم علي القاضي بالإعدام ولكني هربت، نعم هربت، الآن أنا مجرم هارب بسبب جريمة لم أفعلها أصلاً.

لقد نجحت حقاً، نجحت في ارتكاب جريمة حمقاء وأوقعتني في مصيدة الاتهام، رأيت صورتي معلقة على إحدى الإعلانات ومكتوب تحتها «مطلوب».

عدت إلى منزلي، لا يزال كل شيء مبعثرًا كما كان، حملت المسدس ووجهته نحو رأسي وقبل إطلاق النار بأقل من ثانية شعرت بشخص يحاول منعي، وكان آخر صوت سمعته هو صوت الرصاصة المتجهة نحوي، كنت أتمنى أن تكون غيبوبة لا نهاية لها.

استيقظت لأجد نفسي أرقد في مكان لا أعلم أين هو، فتحت عيني ببطء شديد، يقع باب مسقط بصري وتتسرب أشعة الشمس عبر فتحة لا أعلم أين هي لتسقط على رأسي، حاولت رفع يدي لأنهض لكن هناك ألم شديد في ساعدي الأيسر، ماذا حدث يا ترى، من أين أتى هذا الألم؟

سمعت وقع أقدام يقترب نحوي، يقترب أكثر، خفت كثيراً، من هذا، ترقبت الباب مسافة، لم يدخل أحد، سحبت جسدي بجهد نحو الباب لأرى ماذا يحدث وأين هذا المكان، تجولت بنظري حول الغرفة، هاتفي يرقد ببرود تام على مسافة مني وهناك شيء ما بجانبه، لم أره جيداً، جمعت نظري وصببت كل تركيزي على ذاك الشيء، حقيبة سوداء إذن، ماذا بداخلها؟! ربما شيء يخصني، مددت يدي محاولاً الإمساك بها لكنها لم تصل، سحبت جسدي قليلاً وأمسكتها، فتحت السوستة، كانت ملفات وأوراق تخصني..... أين أنا؟! ما هذا المكان، هناك الكثير يجب أن أعرفه.

عادت تلك الخطوات مرة أخرى، كانت ميشيل هذه المرة، سألتها أين أنا؟ لكنها لم تجب وخرجت، سحبت جسدي نحو الباب لأرى بعض تفاصيل المكان، كان مرعباً، بدا لي كأنه مصحة للمجانين، صرخت بصوت عالٍ: أنا لست مجنونا، بل عالقًا في حبٍ أعور لا يرى جيداً.